جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالإسكندرية
قسم العقيدة والفلسفة

دراسات
في
علم الأخلاق

دكتورة
منى إبراهيم أبو شادى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى ، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن بهديه اهتدى .

أما بعد ،،،،

فإنه مما لا شك فيه أن الأخلاق هى أساس النجاح فى الحياة ووسيلة تحقيق الآمال وبلوغ الغايات . فما سعدت الأفراد وما ارتقت المجتمعات إلا بالتمسك بالفضائل الإنسانية والتحلى بالأخلاق الإجتماعية .

وليس بعامر بنيان قوم .... إذا ما أخلاقهم كانت خرابا

ونحن جماعة المسلمين لنا فى رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم المثل الأعلى فى حسن الخلق . ولين الجانب . وحسن المعاملة . وتأليف القلوب . فقد كان يعفو عمن أساء ويستغفر لمن أذنب. ويشاور أصحابه مع أن السماء كانت ترعاه وتثبت خطاه ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ .(١)

وفى هذا المؤلف سوف نسلط الأضواء على بعض من موضوعات علم الأخلاق والآداب الإسلامية . مع أمل فى أن يعود مجتمعنا الإسلامى إلى ما كان عليه (مجتمع الفضائل والمكارم) التى تسود تصرفات أفراده وجماعاته وتربط بينهم برباط المودة القوى المتين الذى لا تنفصم عراه .

والله الموفق والمعين وهو حسبى ونعم الوكيل

د/ منى إبراهيم أبو شادى

---

(١) سورة الأحزاب من الآية ﴿٢١﴾ .

تمهيد :

الأخلاق فرع من فروع العلوم الفلسفية التي تشتمل على كثير من الفنون ، والتي كانت في بداية أمرها ممتزجة مختلطة بها ، ثم أخذت بمرور الزمن تتمايز من حيث موضوعاتها ، فامتاز علم الاجتماع وعلم النفس ، وعلم الأخلاق ... وهكذا .

أقسام العلوم :

تنقسم العلوم إلى قسمين بحسب موضوعاتها :

١ ـ علوم وصفية .

٢ ـ علوم معيارية .

النوع الأول : من العلوم يبحث في الأمور الواقعية أو الموضوعية .

أي يبحث فيما هو كائن فعلا ، وذلك مثل علم الكيمياء ، وعلم الفلك في العلوم الطبيعية ، وعلم النفس في العلوم الإنسانية ، وعلم التاريخ .

فهذه العلوم تصف لنا موضوعاتها على الصورة التي هي عليها في الواقع ونفس الأمر دون النظر

إلى ما يجب أن تكون عليه تلك الموضوعات .

النوع الثاني : علوم لا تصف لنا موضوعاتها على الصورة التي هي كائنة فعلا ، ولكنها تبحث فيما يجب أن تكون عليه هذه الموضوعات ، وذلك مثل علم النحو ، فإنه يبحث فيما يجب أن تكون عليه أواخر الكلمات العربية ، وعلم المنطق فإنه يبحث فيما يجب أن يكون عليه الذهن من سلامة في التفكير .

وعلم الأخلاق من النوع الثاني ، أي أنه علم معياري وليس علما وصفيا فهو لا يصف لنا أخلاق الإنسان على الصورة التي هي كائنة فعلا، ولكنه يوضح لنا ما يجب أن تكون عليه هذه الأخلاق ، وهو لا يقف عند حد وصف سلوك الإنسان، لكنه يبحث سلوك الإنسان وأعماله ، ويبين إن كانت خيراً أو شراً .

وهل هي تعين على إسعاد الإنسان وبني جنسه ، أم هي على العكس ؟

ويرسم كذلك الطريق الذي يؤدي بالإنسان إلى الخير ويصل به إلى السعادة والفضيلة ويبعد به عن الشقاء والرذيلة .

ولقد كانت الفلسفة اليونانية تنقسم إلى علوم ثلاثة هي :

١ - المنطق .

٢ - الطبيعة .

٣ - الأخلاق .

ثم استقل علم الطبيعة وصار له كيانه المستقل عن الفلسفة ومع ذلك فقد ظلت المعارف والعلوم الفلسفية تنقسم إلى أقسام كثيرة باعتبارات عديدة نختار منها التقسيم الآتي :

١ - مابعد الطبيعة أو ما وراء المادة :

ويبحث عن علة الموجودات ، وهو مايقابل مبحث الإلهيات لدى علماء الكلام .

وسمي بما بعد الطبيعة " لأن فيلسوف اليونان الشهير أرسطو* - كان قد ألف كتاباً في الطبيعة ثم تلاه بآخر لم يكتب له عنوانا ، وكانت مادته

---

* (أرسطو) (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) مربي الاسكندر فيلسوف يوناني من كبار مفكري البشرية تأثرت بوادر التفكير العربي بتآليفه التي نقلها إلى العربية النقلة السريان وأهمهم اسحق بن حنين ، وأرسطو مؤسس مذهب "فلسفة المشائين" ، من مؤلفاته : "المقولات" "والجدل" "والخطابة" "وكتاب مابعد الطبيعة" "والسياسة" "والنفس" "والأخلاق إلى نيقوماخس" .

راجع : المنجد ص٣٤ دار المشرق ، بيروت ، الطبعة الثامنة .

تختلف عن المادة المطروحة فى كتابه " الطبيعة " فعرف من ذلك الحين بـ "ما بعد الطبيعة" وصارت الموضوعات التى تبحث فى العلوم غير الطبيعية تسمى بـ "علوم ما وراء الطبيعة" أو "الميتافيزيقا" .

٢ – المنطق :

ويختص بالبحث فى قيمة البرهان والمعرفة الإنسانية .

٣ – الأخلاق :

وتختص بالبحث فى قيمة السلوك .

يتضح من هذا التقسيم أن الأخلاق فرع من فروع الفلسفة ، وأن نسبته إليها كنسبة الجزء إلى الكل . (١)

" والأخلاق " جمع خلق ويعنى بدراستها علم معين يسمى " علم الأخلاق " وكلمة أخلاق فى اللغة الأوربية تسمى "MORALS" ويناظر الكلمة فى اللغة العربية : آداب وأخلاق .

وقد استعملت كلمة آداب للدلالة على الحِكَم

(١) راجع : منصور على رجب : تأملات فى فلسفة الأخلاق ص ٤٥ ، الإنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ٢٩٥٥
ابراهيم جمال الدين : فلسفة الأخلاق ص ٩١ وما بعدها مطبعة أمين عبد الرحمن بمصر .

القصار والجُمَل التي تحث أو تُعبِّر عن المعاني الخلقية . وغالبا ما تستعمل الكلمة في صيغة الجمع كما جاء في كتاب " صوان الحكمة " لأبي سليمان المنطقي السجستاني "، و" آداب الفلاسفة " لحنين بن إسحق " وغير ذلك.

وأحيانا تستعمل الكلمة في صيغة المفرد كما سمى الماوردي كتابه " أدب الدنيا والدين " وكما سمى " ابن المقفع " كتابيه " الأدب الكبير " و" الأدب الصغير " ليدلا بذلك على المعاني الخلقية .(١)

وابتداء فإنه يتعين علينا قبل الخوض في جوهر بحثنا هذا أن نتعرف على علم الأخلاق ساحة مراثينا وأفكارنا في هذه الدراسة فلنبدأ إذن مستعينين من الله العون والتوفيق .

* * *

---

(١) راجع : د /عبد الرحمن بدوي : الأخلاق النظرية ص ٧ وما بعدها وكالة المطبوعات بالكويت ، الطبعة الثانية ١٩٧٦ م .

أولا التعريف بعلم الأخلاق

ورود لفظة أخلاق في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة :

لقد وردت كلمة "خُلُق" بضمتين في القرآن الكريم مرتين بلفظ المفرد .

الأولى : في قولة (تعالى) مخاطبا رسوله (صلى الله عليه وسلم) :

"وإنك لعلى خلق عظيم ".(١)

ولقد جاءت هذه الآية الكريمة في مقام المدح .

قال القرطبي (٢) في تفسير هذه الآية :

"قال ابن عباس ومجاهد : على خلق : على دين عظيم من الأديان ، ليس دين أحب إلى الله (تعالى) ولا أرضى عنده منه ".

(١) سورة القلم : الآية ٤

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج ٨ ص ٦٧٠٦ دار الشعب .

فجعل القرطبي معنى الخلق هنا : الدين وهو أحد المعاني التي ستذكر في تعريف الخلق لغة .

أما ابن كثير (١) فقد فسر الخلق وخصه بالدين الإسلامي ، فذكر :

" .... عن ابن عباس وإنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام .. "

الثانية : في قوله (سبحانه وتعالى) :

"إن هذا إلا خلق الأولين " (٢)

وردت هذه الآية في مقام الوصف أي وصف ما درج عليه الأولون .

ولقد جاء في تفسير الجلالين ، أن معنى الخلق هنا هو الطبيعة والعادة . (٣)

وجاء في تفسير القرطبي (٤) عن ابن عباس في تفسير نفس الآية :

"أي دينهم . وقال الفراء عادة الأولين ... وقال ابن الأعرابي الخلق الدين ، والخلق الطبع، والخلق المروءة ".

(١) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص٤٠٢ ط عيسى البابي الحلبي .
(٢) سورة الشعراء : الآية ١٣٧ .
(٣) راجع تفسير الجلالين ص ٣٣١ ط دار الشعب .
(٤) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج ٦ ص ٤١ ٤٨

وكما ترى أن كل هذه المعانى واردة فى معنى الخلق فى اللغة ·

وقد وردت لفظة خلق فى الحديث الشريف مفردة وجمعا ·

ووردت أحاديث كثيرة صحاح ، تعنى بالأخلاق وتتحدث عنها ، وتبين مكانتها ·

فمن ذلك قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

" ما من شيئ يوضع فى الميزان أثقل من حسن الخلق وان صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة "· (١)

وما روى عن أبى ذر قال : قال لى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

" اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة

---

(١) الترمذى : الجامع الصحيح ج ٤ ص ٣٦٣ كتاب البر والصلة ، مصطفى البابى الحلبى ·

تحجها ، وخالق الناس بخلق حسن ". (١)

وما روى أيضا عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) :

إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى ، وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون * ، المتشدقون ** المتفيهقون *** (١)

---

(١) الترمذى : الجامع الصحيح ج ٤ ص ٣٥٥ كتاب البر والصلة ، سنن الدارمى : ج ٢ ص ٣٢٣ كتاب الرقائق باب حسن الخلق نشرته دار إحياء السنة النبوية طبعة دار الكتب العلمية بيروت .

الطبرانى : مكارم الأخلاق ج ١ ص ٣١٧ كتب هوامشه أحمد شمس الدين ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .

* الثرثار : هو كثير الكلام .

** المتشدق : الذى يتطاول على الناس فى الكلام ويبذو عليهم .

*** المتفيهق : المتكبر .

(١) الطبرانى : مكارم الأخلاق ص ٣١٤ .

ومما روى عن جابر بن عبد الله ، قال :
قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :
" إن الله يحب مكارم الأخلاق ، ويبغض
سفسافها *" (١)

∴ ∴

---

* سفسافها : رديئها .

(١) ابن أبي الدنيا : مكارم الأخلاق ص ١٤ وما بعدها ، تحقيق محمد عبد القادر ، دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٩م .
والغزالي : إحياء علوم الدين ج ٢ص ٣٥٢ دار إحياء الكتب العربية ، وورد في كنز العمال ج ٣ ص ١٠ بلفظ " إن الله يحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها " الناشر مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٩ ، وكذلك في مكارم الأخلاق للخرائطي ص١ ، مكتبة السلام العالمية .

تعريف لفظة أخلاق في اللغة :

١ - ورد في معجم القاموس المحيط أن الخلق هو : " السجية والطبع والمروءة والدين " (١)

٢ - وورد أيضا في معجم لسان العرب أن الخلق بضم اللام وسكونها هو : " الدين والطبع والسجية " (٢)

٣ - وورد في محيط المحيط أنه : " السجية والطبع والمروءة والدين " (٣) واتفق معه صاحب المعجم الفلسفي . (٤)

٤ - وورد في معجم ألفاظ القرآن الكريم أنه : " السجية والطبع وما يجري عليه المروءة من عادة لازمة " (٥)

---

(١) الفيروز ابادي : ج ٣ - ص ٢٢٩ مؤسسة الحلبي .

(٢) ابن منظور : ج ٢-ص ١٢٤٥ ، دار المعارف .

(٣) البستاني : ص٢٥١ ، مكتبة لبنان ١٩٧٩م .

(٤) د / جميل صليبا : المعجم الفلسفي ج ١-ص ٤٩ ، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٨م .

(٥) معجم ألفاظ القرآن الكريم : ج ١-ص ٣٦١ ط لجنة التراث

٥ - ويرد فى دائرة المعارف للبستانى (١) أنه
" العادة والطبيعة والدين والمروءة ".

٦ - ويرد أيضا فى المنجد أن الخلق هو :
" المروءة العادة السجية والطبع (٢)
ونلاحظ هنا أنه لم يذكر الدين واكتفى بالسجية
والطبع والعادة والمروءة .

٧ - ولقد جاء فى الوافى للبستانى (٣) أن " الخَلاقَ "
بالفتح النصيب من الخير وفى القرآن :
(.... أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ...) الآية (٤)

الخلق والخلق بضمتين وبالتخفيف السجية والطبع
ومنه فى القرآن :-
(إن هذا إلا خلق الأولين) (٥)
من مجموع ما ورد فى معاجم اللغة نستطيع

---

(١) البستانى : ج ٧ ص ٤٤٧ دار المعرفة ، بيروت .
(٢) المنجد : ص ١٩٤ دار المشرق بيروت .
(٣) الشيخ عبد الله البستانى : الوافى ص ١٨٦ ، مكتبة لبنان ١٩٨٠ م .
(٤) سورة آل عمران : من الآية ٧٧
(٥) سورة الشعراء : الآية ١٣٧ .

أن نستلخص المعاني الآتية لكلمة " خلق " في اللغة ":

١) الطبع .

٢) السجية .

٣) المروءة .

وهذه كلها وردت بمعنى ما خلق عليه الإنسان وجبل عليه واعتاده فهي تشمل إذن ما جاء فطرياً وما اكتسبه الإنسان .

٤) الدين .

ومعناه ما يدين به الإنسان ، أي ما يعتقده اعتقاد رسوخ حتى يصير بالنسبة له عادة وطبعاً .

إذاً الغرض من تعريف الخلق بأنه السجية والطبع والدين أن يكون الفعل راسخاً في النفس الإنسانية ، بحيث إذا صدر عن صاحبه يقال هذا خلقه

. *.*

تعريف علم الأخلاق فى الاصطلاح :

أورد علماء الأخلاق والباحثون تعريفات كثيرة لعلم الأخلاق منها ما هو صائب ، ومنها ما هو غير ذلك .

ونحن نذكر بعض هذه التعريفات ، ونبين حظها من الصواب أو الخطأ ، ثم نعقب على ذلك بذكر التعريف الذى نرتضيه .

١ - عرف بعض العلماء علم الأخلاق بأنه :
" علم الخير والشر " .
ومقصدهم من ذلك أنه علم يميز بين الخير والشر ، وأن الإنسان عن طريقه يستطيع أن يميز بين كل منهما ، فيسير فى طريق الخير ، ويبتعد عن طريق الشر . (١)

٢ - وعرفه آخرون بأنه : " علم الإنسان " لأنه

---

(١) راجع : منصور على رجب : تأملات فى فلسفة الأخلاق ص ١٦

يبحث في الأعمال التي تصدر عن الإنسان
ويرسم له الطريق إلى السعادة . (١)

٣ - وعرفه فريق ثالث بأنه : "علم الواجب والواجبات"
وذلك لأنه يهدي الإنسان إلى ما يجب
عليه عمله ، وما يجب عليه تركه . (٢)

وهذه التعريفات على كثرتها ليس فيها تعريف
واحد يفي بالغرض ، لأنها كلها واسعة المدلول،
تشمل مع علم الأخلاق علوماً أخرى . وعلى
سبيل المثال نأخذ التعريف الذي يقول :
إن علم الأخلاق هو "علم الإنسان" .

هذا التعريف يشمل مع علم الأخلاق كل
العلوم التي تعنى بالإنسان . فالفلسفة ، وعلم
النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الطب ، وعلم

---

(١) نقلا عن د / محمود محمد مزروعة : دراسات
في علم الأخلاق ص ٨ ، مكتب الرياض للطباعة الأميرية ،
مدينة الرياض ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
(٢) نفس المرجع والصفحة .

التاريخ ، كل هذه العلوم تدخل تحت هذا التعريف بشكل أو بآخر ، ومثل هذا يقال في بقية التعريفات ، فمثلا من عرفه بأنه "علم الواجب والواجبات" أهمل جانباً هاماً من جوانب العلم ، وهو تقويم الأعمال الإنسانية بالرغم من أن الواجب جزء من موضوع علم الأخلاق إلا أن هذا التعريف تعريف بالأخص .

وكذلك التعريف القائل بأنه "علم الخير والشر" لم يبين حقيقة كل من الخير والشر .

التعريف المختار :

هو الذي يعرف علم الأخلاق بأنه :
"علم بالفضائل وكيفية اقتنائها ليتحلى الإنسان بها ، وبالرذائل وكيفية توقيها ليتخلى عنها ". (١)

---

(١) نقلا عن منصور رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ص ١٧ .

وهذا التعريف اختارته دائرة المعارف للبستاني

وقد يعترض على تعريفنا علم الأخلاق في بدايته بأن العلم لا يجوز تعريفه قبل الشروع فيه ، لأننا لا نستطيع تعريف علم ما إلا بعد أن نقف على حقائقه ، ونلم بمسائله ونتعرف على موضوعاته ومباحثه ، فالمكان الصحيح للتعريف إنما هو(نهاية العلم لا بدايته ، لأن تعريف علم ما هو فرع عن تصور ذلك العلم ومعرفته ولا يتحقق ذلك إلا بعد الانتهاء من دراسة العلم ، وليس قبل الشروع فيه .

وهذا الاعتراض لا يختص فقط أو لا يقتصر بالعلم الذى بين أيدينا وحده ، وإنما يشمل كل العلوم التى تصدّر بالتعريف .

ونرد على هذا الاعتراض بأن التعريف الذى لا يصح أن يكون من مقدمات الشروع فى

العلم إنما هو التعريف (بالحد) * لأنه يتطلب معرفة تفصيلية لا تتوفر إلا بعد الانتهاء من دراسة العلم ، والتعريف الذى معنا (رسم) * لا حد .

والتعريف بالرسم جائز أن يكون فى مقدمة العلم ، لأنه لا يتطلب المعرفة التفصيلية التى يتطلبها التعريف بالحد .

---

* " الحد " الحقيقى : عبارة عما يميز الشيء عن غيره بذاتياته ، فإن كان مع ذكر جميع الذاتيات العامة والخاصة فتام ، كحد الإنسان بأنه الحيوان الناطق ، وإلا فناقص كحد ه بأنه الجوهر الناطق أو الناطق فقط .

الآمدى : المبين فى شرح معانى ألفاظ الحكماء والمتكلمين ص ٧٤ تحقيق وتقديم د / حسن محمود الشافعى ط ١٩٨٣م . د / عبد السلام محمد عبده : المنطق والفكر الإنسانى ص ١٣٦ ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م .

* " الرسم " عبارة عن ما يميز الشيء عن غيره =

وقد يعترض على التعريف ذاته بأنه يشتمل على ذكر (الرذائل) مع أن علم الأخلاق يختص بدراسة الفضائل والبحث فيها، ولا علاقة له بالبحث في الرذائل، ونرد على هذا الاعتراض بأن ذكر الفضائل وتحديدها وتوضيحها يؤدى قطعا إلى معرفة الرذائل ضمنيا وبالمقابلة وبضدها تتميز الاشياء .

∴ ∴

= تمييزا غير ذاتى، وتمامه ونقصانه بما به تمام الحد الحقيقى ونقصانه، فالتام منه : كرسم الإنسان بأنه الحيوان الكاتب، والناقص : بأنه الجوهر الكاتب أو الكاتب فقط .

الآمدى : المبين ص٧٤ .

ثانيا : موضوع علم الأخلاق

يذكر الباحثون أن وظيفة علم الأخلاق الأساسية والأولى هى الأعمال التى يقوم عليها الإنسان ويحكم عليها بالخير أو الشر .

لكن هل كل الأعمال التى يؤديها الإنسان وتصدر عنه تخضع للحكم الخلقى ؟

يجدر بنا أولا قبل الاجابة على هذا التساؤل أن نبين بالتفصيل أنواع الأعمال التى تصدر عن الإنسان ونقرر أيها يخضع للحكم الخلقى وأيها لا يخضع ؟

تنقسم الأعمال الإنسانية إلى ثلاثة أقسام :

١ - أعمال إرادية .
٢ - أعمال غير إرادية .
٣ - أعمال شبه إرادية وهى الآخذة بشبه من الأعمال الإرادية وغير الإرادية .

أولا : الأعمال الإرادية :

هى الأعمال التى تصدر عن الإنسان بعد تفكر

وتعتبر فى نتائجها وتكون مرادة لعلمها أى أن المقدمات مرادة وكذلك النتائج مرادة .

أو هى الأعمال التى تصدر عن الإنسان وله عليها قدرة وسلطان .

فإذا أراد إنسان أن يبنى مستشفى فى بلده فكر طويلا فى هذا الأمر وأخذ يستعرض كيفية بنائها والحالة المادية له ، وكيف ينتفع بها أهل بلدته ؟

وكيف أنها تخفف المصائب عنهم إلى غير ذلك من الأمور المتعلقة ببناء المستشفى فإنه تكون لديه الإرادة التى تمكنه من إخراج هذا الأمر من حيز الفكر إلى حيز الوجود .

وكذلك الأمر فى من يعزم على قتل عدوه فيفكر فى الوسائل التى تمكنه من ذلك ويختار الوقت المناسب كل ذلك وهو هادئ الفكر ، وبعد ذلك أخذ يفكر هل يقتله أم لا ؟

فإذا قرر القتل فإنه تكون لديه الإرادة

التى تمكنه من إخراج هذا العمل من حيز الفكر إلى حيز الوجود .(١)

ثانياً : الأعمال غير الإرادية :

هى الأعمال التى لا يفكر فيها الإنسان وليس له أية إرادة فى حدوثها ، ولا يتدبر نتائجها ، ولا يمكن أن يتحكم فى هذه النتائج .

أو هى الأعمال التى تصدر عن الإنسان وليس له عليها سلطان أو قدرة .

وهذه الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ – أعمال طبيعية (أى أعمال آلية) .
٢ – أعمال عكسية .
٣ – أعمال المُكْره .

فمثال الأعمال الطبيعية أى الآلية : عملية الهضم ، وعملية التنفس ، ونبض القلب ، فكل هذه الأعمال إنما تقوم بها الأعضاء الداخلية من غير تدخل لإرادة الإنسان ، أو تفكيره فيها .

---

(١) راجع : أحمد أمين : كتاب الأخلاق ص٢ ، النهضة المصرية ، الطبعة العاشرة ، ١٩٨٥م .

وقد تتم هذه الأعمال على أكمل وجه ويستفيد الإنسان بنتائج كالها فوائد جمة .

وقد تتم وفيها قصور فى أية ناحية من النواحى فتعود على الإنسان بنتائج وخيمة . وفى كلتا الحالتين لا يكون للإنسان أى تدخل فى حدوثها أو فى التحكم فى نتائجها .

— أما مثال الأعمال العكسية : فضيق حدقة العين عند شدة الضوء ، وغمض العين عند اقتراب شيئ غريب منها ، وتحرك الساق عند ضرب ما فوق الركبة ، والعطاس ، وتحرك اليد أو الرجل عند الشعور بالأذى .

— الأعمال الصادرة عن المُكره : كأن يكره إنسان إنسانا آخر على الإتيان بفعل لا يريده ولكنه يأتى به تحت الإكراه حفاظاً على نفسه أو ماله .

وفى هذه الحال لا عقاب على المُكرَه وإنما المسئولية تقع على المُكرِه تحت ضوابط

حدّدها الشرع .

والفرق بين العمل الآلى الطبيعى والعمل العكسى وأعمال المكره :
أن الأول تكون مؤثراته داخلية ، أما الثانى فلابد لحصوله من مؤثر خارجى ، أما الثالث فلا إرادة له ولا مشيئة ولا إختيار .

ثالثاً : الاعمال شبه الإرادية :

وهى الاخذة بشبه إرادة من جانب ومن جانب آخر فهى غير مرادة .

وهذه الاعمال هى التى تكون مقدماتها مرادة للانسان . ولكن نتائجها المترتبة على المقدمات غير مرادة أى أن هذا العمل ارادى المقدمات اضطرارى النتائج . ومثال ذلك :

١ - أن بعض الناس يأتى أثناء نومه بعمل فيقوم من فراشه من غير أن يشعر ويحرق منزله مثلا .

٢ - رجل حفر بئراً فى الطريق كى يستعين

به على بناء بيته ثم ترك هذا البئر ونام فوقع فيه إنسان أو حيوان فمات.

٣ - الأم التى تنام بجوار وليدها ثم تتقلب عليه وهى مستغرقة فى نومها فتقتله.

هذه الأعمال وأمثالها إذا نظرنا إليها من زاوية أو ناحية أنها أعمال تمت وأحدثت آثارا أى أن مقدماتها كانت مرادة يمكن أن نصفها بأنها أعمال إرادية ، وإذا نظرنا إليها من زاوية أنها تمت دون أن يكون للفكر والإرادة والاختيار فيها نصيب أى نتائجها كانت إضطرارية يمكن أن نصفها بأنها أعمال غير إرادية.

هذا وبعد أن بينا أنواع وأقسام الأعمال المختلفة يجب أن نجيب عن هذا التساؤل الذى طرحناه وهو :

أى هذه الأعمال يخضع للحكم الخلقى وأيها لا يخضع ؟

١ - الأعمال الإرادية : هى التى تخضع للحكم

الخلقي .

وهي التي يحكم عليها بأنها خير أو شر وأن صاحبها شاب على عمله أو معاقب ويحاسب على ما آتاه منها ، لأنه فكر فيها واتخذ قرارة لإتيان هذا العمل فهو إذن مسئول عن كل النتائج التي تحدث نتيجة لهذا العمل ، لأن مقدمات العمل ونتائجه كانت مرادة .

٢ - الأعمال غير الإرادية : فلا تقع تحت الحكم الخلقي لأنه لا دخل للإنسان فيها .

٣ - وكذلك الأعمال شبه الإرادية أي الآخذة بشبهة بين الإرادية وغير الإرادية .

لكن يسأل الإنسان ويحاسب إذا كان يعلم أنه مصاب بهذا المرض وأنه يأتي أعمالا خطرة ، وهو نائم ثم لم يحتفظ وقت صحوه وانتباهه لما قد يحصل أثناء نومه ، بأن يحول بين نفسه وبين النار وأدواتها .

فنحن مسئولون خلقياً عن عدم الاحتياط

للأوقات التي نكون فيها غير مسئولين .

وكذلك الإنسان الذي حفر البئر فهو محاسب على مقدمات العمل ، وهو حفره البئر، ثم تركه إياه دون تغطيته ، وهو يعلم جيداً أنه ربما يقع فيه إنسان أو حيوان .

وكذلك أيضا الأم التي تنام بجوار وليدها ثم تنقلب عليه وهي مستغرقة في نومها فهي محاسبة أيضا على مقدمات هذا العمل لأنها كانت تعرفه وتدرك أنها ربما انقلبت فقتلت طفلها ، وهي لم تحتفظ لهذا الاحتمال الوارد ، وأهملت فهي محاسبة خلقياً على هذا الإهمال .

يتضح لنا مما تقدم أن " موضوع علم الأخلاق " هو الأعمال التي صدرت من الإنسان عن عمد واختيار ، ويعلم صاحبها وقت عملها ماذا يعمل ، وهذه هي التي يصدر عليها الحكم بالخير أو بالشر ، وكذلك الأعمال التي صدرت لا عن إرادة ولكن يمكن الإحتياط لها وقت الإنتباه والإختيار .

أى أن موضوع علم الأخلاق هو :
(أعمال الإنسان الإرادية وشبه الإرادية) .

وبذلك يخرج عن موضوع علم الأخلاق نوعان من الأعمال وهما :

١ ـ أعمال غير الإنسان ، مما يصدر عن الطبيعة أو الحيوان .

٢ ـ أعمال الإنسان غير الإرادية .

∴ ∴

مراحل تحقيق العمل الإنسانى :

هل يصدر الحكم الخلقى على الأعمال الإرادية باعتبار نتائجها ، أم باعتبار قصد العامل ونيته ؟

للإجابة على هذا التساؤل لابد أن نعرف أولا المراحل التى يمر بها العمل الإرادى أو الفعل الإرادى التام ، إذ أن أى عمل إرادى يصدر عن الإنسان تسبقه عمليات نفسية معينة ، ويمر بمراحل عديدة آخرها مرحلة التنفيذ الفعلى ، وهذه المراحل هى :-

١ - الإدراك أو تصور الهدف :

فأول مرحلة يبدأ بها العمل الإنسانى ، إنما هى الإدراك .

أى إدراك الإنسان لذلك العمل الذى يحتمل قيامه به . وعلى سبيل المثال :

لو فرضنا أن شخصا قابلك فى الطريق وطلب منك صدقة فأول شىء يحدث هو أن تدرك

أن شخصا يطلب منك صدقة .

٢ - الموازنة : أو النظر في الأسباب وهو ما يسمى بالروية أو التقدير أو المناقشة .

هذه هي المرحلة الثانية التي تلي مرحلة الإدراك ، ومعنى الموازنة أو الروية أنها مرحلة تقوم على التأمل والتفكير في الأمر قبل العزيمة عليه ولذلك قيل :

إنها أي الروية النظر في الفعل بأناة للموازنة بين الأسباب الداعية إليه ، والأسباب الصادرة عنه ، فإذا أسفرت هذه الموازنة عن إتخاذ قرار تمت شروط الفعل ، وإذا لم تسفر عن إتخاذ قرار أدت إلى الوقوع في الحيرة والتردد .

وهذا يعني أن الإنسان بعد أن أدرك أن هناك شخصا يطلب صدقة ، يحدث في داخل الإنسان موازنة بين أن يتصدق أو لا يتصدق .

أى بين فعل الشيء المدرك أو تركه . (١)

٣ - الاختيار والتصميم أو التقرير أو العزم على الفعل :

وهذه مرحلة تلى الموازنة ، فبعد إدراك أن شخصا يطلب صدقة ، وبعد الموازنة بين الفعل والترك ، تأتى مرحلة الترجيح والإختيار والعزم على الفعل والتصميم ، وذلك بأن يختار الإنسان وينوى بذل الصدقة لمن يطلبها .

٤ - التنفيذ :

هو المرحلة الأخيرة من مراحل العمل الإرادى ، وهو أن ينفذ الإنسان ما عزم عليه واختاره وذلك بأن يمنح الرجل الصدقة لمن طلبها .

يقول الدكتور جميل صليبا : (٢) "التنفيذ فى علم

(١) راجع : د / محمود مزروعه : دراسات فى علم الأخلاق ص١٧ ، د / جميل صليبا : المعجم الفلسفى : ج ١.ص ٦٢٩ .

(٢) المعجم الفلسفى ج ١-ص٣٥٤

النفس هو المرحلة الأخيرة من مراحل الفعل الإرادي ، لأن علماء النفس يفرقون بين المرحلة الخاصة بالفعل الإرادي وبين ما يسبقها ، أو يتبعها من المراحل ، أما ما يسبقها فهو التصور وأما ما يتبعها فهو التنفيذ ، ومع ذلك فإن الفعل الإرادي لا يكون تاماً إلا إذا كان مصحوبا بشيء من التنفيذ ، لأنه إذا لم يقترن بذلك كان مجرد نية * أو ميل بسيط ."

.:. .:.

---

* (النية) لغة : انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض من جلب نفع ، أو دفع ضرر حالاً ومآلاً .

والنية شرعا هي الإرادة المتوجهه نحو الفعل ابتغاء لوجه الله وامتثالاً لحكمه ، وقيل : النية هي القصد إلى الفعل ، أو هي عزم القلب على الشيء وتوجهه إليه تاما حتى يستقر عليه .

راجع : د/جميل صليبا : المعجم الفلسفي ج ٢ ص ٥١٣

موقع هذه المراحل من علم الأخلاق :

بعد أن عرفنا المراحل التي يمر بها أي عمل إنساني حتى يتحقق تنفيذه ، نشعر أن ثمة سؤالاً يقول : ما موقع هذه المراحل كلها من موضوع علم الأخلاق ؟

وهل تدخل كلها في موضوع علم الأخلاق أو أن علم الأخلاق يتناول بعضها دون البعض الآخر ؟

للإجابة على هذا السؤال نقول :
"إن المرحلة الأولى والمرحلة الثانية لا تدخلان تحت موضوع علم الأخلاق ، فالإدراك والموازنة لا يخضعان للحكم الخلقي ، فلا يوصف الشخص بأنه خيِّر أو شرير لأنه أدرك أمراً من الأمور سواء كان ذلك الأمر خيراً أو شراً ، ومثل ذلك يقال بالنسبة للموازنة . فلو أن شخصاً دعاك إلى فعل معصية فأدركت ما يريد ، ثم أخذت توازن بين فعل المعصية استجابة لداعي نزواتك ورغباتك ، وتركها استجابة لداعي الله ، ورهبة

منه (سبحانه) فإن ذلك لا يوصف بخير أو بشر ما دام الأمر لم يتعد حد الموازنة، وليس من شك في أن ثمة أموراً كثيرة ينتهي بها الإنسان عند حد الموازنة ولا يتعداه، ولتوضيح ذلك نفترض أن رجلاً دعاك إلى قتل رجل آخر، فقلت له اتركني أفكر، وبينما أنت متردد بين فعل ما دعاك إليه أو تركه، إذا الرجل الذي كنت ستقتله قد مات، وبذلك انتهى الأمر بالنسبة إليك ولكنه انتهى عند مرحلة الموازنة، التي هي التردد بين الفعل والترك، ومثل ذلك الموقف منك لا يوصف بخير أو بشر، وليس داخلاً تحت موضوع علم الأخلاق ". (١)

من خلال هذا النص نرى أن :
الإدراك والموازنة لا يخضعان للحكم الخلقي .

---

(١) د / محمود مزروعة : دراسات في علم الأخلاق ص ١٨ .

نية العامل ونتيجة العمل :

إذا كان الحكم الخلقي لا يخضع أولا يصدر على الإدراك أو الموازنة . فعلام يصدر الحكم الأخلاقي إذن ؟

هل يصدر بناء على نية العامل ؟
أو على نتيجة العمل ؟

فكثيرا ما يقصد الإنسان إلى عمل معين تحدوه النية الطيبة ، والقصد الحسن ، ولكن نتائجه تكون شراً وضرراً لم يقصد إليه ولم ينتظره .

على سبيل المثال لو أن طبيبا أجرى عملية جراحية لمريض بغية إنقاذ حياته ، فكانت النتيجة أن العملية الجراحية عجلت بوفاته فما هو موقفنا من هذا الطبيب ؟
أنحكم عليه بأنه رجل خير بناء على نيته ؟
أو نحكم بأنه شرير بناء على نتيجة عمله ؟

يرى جمهور الأخلاقيين أن الحكم الأخلاقي

إنما يصدر بناء على نية العامل وقصده ، دون اعتبار لنتيجة عمله ، فإذا كانت نيته خيرة كان رجلا خيرا ولو نتج عن عمله الشر ، وإن كانت نيته سيئة كان رجلا شريرا ولو نتج عن عمله الخير . (١)

وهذا الرأى الذى اختاره جمهرة الأخلاقيين غير صحيح على إطلاقه فإن النية مع الاعتراف بأن لها وزنا كبيرا فى الحكم الأخلاقى - لا تنتج أى عمل بمفردها ، ولكن بجانب النية لابد من وجود آلات ووسائل يتحقق بها العمل ويخرج إلى حيز الوجود . ففى المثال الذى ذكرناه لو أن الطبيب قصد علاج المريض وكانت نيته خيرة وصالحة ، ولكنه لم يحضر الأدوات اللازمة للعملية الجراحية ، أو استحضرها ولكنه أهمل فى تعقيمها ، أو أهمل فى استحضار

(١) راجع : د / محمود مزروعة : دراسات فى علم الأخلاق ص ١٩ ، أبو بكر ذكرى ، مباحث ونظريات فى علم الأخلاق ص ١٥٩ دار الفكر العربى الطبعة الرابعة ١٩٦٥م .

عقار ضرورى لاجراء هذه العملية ، ونتج عن هذا الإهمال وفاة المريض ، فهل نحكم على الطبيب فى هذه الحالة بأنه خير ، لمجرد أن نيته خيرة ، وقصده نبيل ؟ .

ليس هناك شك فى أن عمل هذا الطبيب رغم نيته الحسنة ، وقصده النبيل - شر لا خير وليس من شك فى أن علم الأخلاق يدين مثل ذلك الطبيب لاهماله وتقصيره فى آداء واجبه ذلك التقصير الذى نتج عنه وفاة المريض (١) .

لكن ذلك فنحن مع اعترافنا بأن النية لها المركز الأول ، والاعتبار الأكبر بالنسبة للحكم الأخلاقى ، إلا أننا لا نهمل العوامل الوسيطة فى تحقيق العمل وإخراجه إلى حيز التنفيذ وذلك الوسائل والآلات ، فالنية وحدها لا تحقق عملا

---

(١) راجع : د / محمود مزروعة : دراسات فى علم الأخلاق ص ١٩ وما بعدها .

ولا تنتج خيرا ولا شرا ، نعم ، إذا توفرت النية الطيبة ، والقصد الحسن ، وبجانب ذلك اتخذ العامل كل الأسباب - قد رجهده - لكي يكون عمله خيرا ، ولكن كانت النتيجة - رغم ذلك - شرا أو ضررا ، ففي هذه الحالة يكون العامل خيرا ، والعمل خير بصرف النظر عن النتيجة (١) .

لذلك يجب علينا قبل أن نصدر الحكم الأخلاقي على عمل ما ، ألا نقتصر على ادعاء العامل أن نيته حسنة ، ومقصده نبيل ، ولكن علينا أن نتأمل في ظروف العمل والعامل ونبحث : هل فعل العامل كل ما في وسعه لإصابة الخير ؟

وهل اجتهد في تحقيق السعادة والفضيلة ؟

---

(١) راجع : د / محمود مزروعة : دراسات في علم الأخلاق ص ٢٠ .

وهل احتاط حتى لا يقع فى خطأ محتمل ؟ فاذا كان ذلك وأتت النتيجة على غير ما يريد قلنا : نوى الخير ، وعمل جهده لتحقيقه ولكنه أخطأ فله عذره ، ولا تثريب عليه .

وكم من أضرار ومصائب تقع بالافراد وبالمجتمع من جراء الاقتصار على النية فى الحكم على العمل والعامل . فإن هذا باب واسع يفتح الطريق أمام الاشرار وأمام المفسدين ليكثروا من شرورهم ، وينشروا فسادهم ، وينزلوا الاضرار بالبلاد والعباد ، وهم فى مأمن من العقاب ، ما داموا متسترين وراء النوايا الطيبة فإنه ليس أسهل على أى فرد من هؤلاء أن يدعى أن نيته حسنة ، وقصده سام ، وهدفه نبيل ، وما أكثر هؤلاء فى كل زمان ومكان وهم فى عصرنا أكثر ، هؤلاء الذين يفعلون الشر ، ويلحقون بالناس الضر ، تحت شعار النية الطيبة والقصد الحسن .

وهذا هو الذى دفع بفريق من الفلاسفة الأخلاقيين أن يرفضوا اعتبار النية موضوعا للحكم الخلقى ، وهذا الفريق يجعل أساس الحكم الخلقى إنما هو نتيجة العمل فقط ، بصرف النظر عن النية والقصد . فإذا كانت النتيجة حسنة كان العامل خيرا ، وإذا كانت النتيجة شرا كان العامل شريرا ، أيا كانت النية والقصد .

وهذا الفريق يتزعمه الفيلسوف "بسكال" * وحجة هذا الفريق فيما ذهب إليه : أن النية أمر مغيب لا سبيل

* (بسكال) بليز PASCAL (١٦٢٣ - ١٦٦٢م) فيلسوف ورياضى وأديب وفيزيائى فرنسى ، له اكتشافات كالآلة الحاسبة ونواميس ضغط الهواء والماء وتوازن السوائل ووضع الخطوط الرئيسية لكتاب فى الدفاع عن الدين المسيحى نشر بعنوان "الخواطر" فكان لها تأثير واسع .
راجع : المنجد ص١١٢ ، والموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٩٤ راجعها وأشرف عليها د/ نجيب محمود ، الإنجلو المصرية ١٩٦٣ م .

إلى الاطلاع عليه ومعرفته ، فإذا جعلناه أساسا للحكم الأخلاقي فإن هذا يعني أننا لن نستطيع إصدار حكم أخلاقي أبدا .

وهذا الرأي ظالم وبعيد عن الصواب في تقديري ، فالمرء محدود التصرف والقدرة في هذا الكون ، وهو في كل تصرفاته مرتبط إلى وسائل محدودة فإذا ما بذل جهده اتجاها إلى الخير ، وتحقيقا له ثم تدخلت عوامل أخرى خارجة عن قدرته ووسائله المحدودة ، كان ظلما وقسوة أن يحمله النتيجة .

فالطبيب يحاول علاج المريض ، ويستحضر كل علمه وفنه وآلاته ، ثم لا عليه بعد ذلك أن يموت المريض ، ما دام ذلك خارجا عن طاقته .

فالحق أن الحكم الخلقي إنما يصدر على نية العامل مع مراعاة الأسباب والوسائل التي يتحقق بها أداء العمل وتنفيذه .

∴ ∴

أقسام علم الأخلاق :

ينقسم علم الأخلاق إلى قسمين :

١ - الجانب النظرى .
٢ - الجانب العلمى .

"أما الأول" ، فهو عبارة عن : مذهب خاص ، مؤلف من قواعد للسلوك وله مبادئ ، يستخلص منها قوانين يسير عليها الإنسان فى شتى الأماكن ومختلف الأزمان .

وأما الثانى ، فهو عبارة عن : تطبيق مجموع قواعد السلوك التى بمراعاتها يمكن الإنسان أن يبلغ غايته القصوى ، ويصل إلى السعادة والخير الأسمى .

أى أن الأخلاق النظرية عبارة عن المذاهب العقلية النظرية التى تضع مبادئ ، وقواعد السلوك الواجب توافرها فى الإنسان ، والأخلاق العملية تتمة

ضرورية لها ، إذ هي تطبيق لهذه القواعد وتلك المبادئ ". (١)

وقد تختلف المذاهب الخلقية من الناحية النظرية ، إلا أنها تتفق جميعها في المناداة بضرورة تطبيق هذه القواعد ، أيا كانت هذه القواعد ، أي سواء اتفقت القواعد التي يضعها أخلاقيو اللذة مع القواعد التي يضعها أخلاقيو الواجب أو لم تتفق فالكل يجمع على ضرورة تطبيق القواعد الموضوعة للسلوك الإنساني لبلوغ الغاية القصوى المرجوة .

---

(١) د / سهير مختار : محاضرات في الأخلاق ص ٨٢ ، الطبعة الثانية ١٩٧٧م . ود / محمد عبد الله دراز : كلمات في مبادئ علم الأخلاق ص ١٧ طبعة ١٩٥٣م والمعجم الفلسفي : ص ١٢٤ ، تصدير د /إبراهيم مدكور ، طبعة المطابع الأميرية بالقاهرة ١٩٨٣ م . ليفي بريل : الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية ص ٦٠ ترجمة د / محمود قاسم وراجعه د /السيد محمد بدوي . ط . مصطفى البابي الحلبي .

ولكن كل يعبر عن وجهة نظره فى القانون الخلقى الذى يرى أنه موصل إلى سعادة الإنسان أو إلى الخير .

ويهمنا هنا أن ننبه إلى أن تقسيم علم الأخلاق إلى نظرى وعملى ما هو إلا تقسيم إعتبارى - فقط - للفهم ، حتى ندرك الفرق بين معرفة قاعدة السلوك وبين تطبيقها ، ولا يعد المرء خلقيا إلا إذا طبق مفاهيمه فى الواقع الخارجى ، وهذا بعينه ما نادى به أخلاقيو العالم منذ السوفسطائيين إلى يومنا هذا .

ومن أعظم ما قاله أرسطو (١) :
"إن فى الشئون العملية ليس الغرض الحقيقى هو التأمل والعلم نظريا بالقواعد

---

(١) أرسطو : علم الأخلاق إلى نيقوماخس : جـ ٢ ص ٣٦٦ ، ترجمه عن الفرنسية أحمد لطفى السيد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٤ م .

علما تفصيليا بل هو تطبيقها . ففيما يتعلق بالفضيلة لا يكفى أن يعلم ماهى ، بل يلزم زيادة على ذلك رياضة النفس على حيازتها واستعمالها ..."

∴ ∴

الأخلاق بين الثبات والتغير :

كثيرا ما يثير علماء الأخلاق هذا التساؤل :-

هل أخلاق الإنسان قابلة للتبديل والتعديل أم أنها لا تقبل ذلك ؟ .

خلاف بين الباحثين حول هذه المسألة .

فبعضهم (١) يرى أن الخلق لا يتغير، ويستدلون على ذلك بدليلين ، كما ذكرهما الإمام "الغزالي" ملخصا لكي يرد عليهما ، وهذان الدليلان هما :

أولاً :- أن الخلق هو صورة الباطن ، كما أن الخلق صورة الظاهر ، فإذا كانت الخلقة الظاهرة لا يستطاع تغييرها، ، فالقصير مثلا لا يستطيع أن يجعل نفسه

١) من أشهر القائلين بهذا الرأى من المحدثين ، الفيلسوف الفرنسى "باسكال" الذى قال : إن الأخلاق الصحيحة تهزأ بعلم الأخلاق وتسخر منه ، والفيلسوف الإنجليزى "سبنسر" الذى صرح بأن خماسة الأخلاقيين ونشاطهم فى نشر العلم رغبة فى إصلاح النفوس البشرية ، إنما هو بدعة وسخافة ، وكيف يرجى من العلم تهذيب النفوس ، بينما نرى المتعلمين الذين استنارت عقولهم لا خلاق لهم .

طويلا ، ولا الطويل يقدر على أن يجعل نفسه قصيرا ، فكذلك الخلق الباطن لا يستطاع تغييره ، فالقبيح باطنا لا يستطيع أن يجعل نفسه حسنا .

ثانياً :- أن حسن الخلق يكون بقمع الشهوة والغضب وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة ، وعرفنا أنه من مقتضى المزاج والطبع ، فإنه قط لا ينقطع عن الآدمي ، فاشتغاله به ضيعة للوقت بدون فائدة . (١)

أما الفريق الآخر - وهو يمثل جمهور الباحثين - فيرون أن الخلق قابل للتغيير وعلى رأس هؤلاء جميعا فيلسوف أثينا الأكبر " سقراط "(٢) الذى قرر أن الخير فى العلم والشر فى الجهل ، وأن معرفة الفضيلة اكتسابها ، والجهل بها

---

(٢) راجع : الغزالى : إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٥٤ .

(٣) فقد حمل لواء هذا الرأى من المحدثين الاخلاقى الألمانى جان فودريك هربارت الذى خلف " كانت " فى كلية كونجسبورج ، إثر وفاته .

مصدر الرذيلة ومأتاها ، وعلى هذا فالفضيلة فى نظره هى توأم العلم ، والرذيلة هى توأم الجهل . وإذا كان الإنسان قابلا للتعلم فإنه يكون تبعاً لذلك قابلا لأن تتعدل وتتغير أخلاقه وذلك بطريق العلم والمعرفة .

وهذا الرأى هو الراجح، لأنه هو الموافق للفطرة الإنسانية ، ولو لم تكن الأخلاق قابلة للتعديل والتغيير لما كانت هناك فائدة من إرسال الرسل ووصايا الأخلاقيين .

يقول الإمام الغزالى " (١)

لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله (صلى الله تعالى عليه وآله وسلم) حسنوا أخلاقكم " *

وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمة ممكن ، إذ ينقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد ".

يقول مسكويه (٢) : "إنه - الرأى الأول - يؤدى إلى إبطال قوة التميز والعقل ، وإلى رفض السياسات كلها ، وترك الناس همجا مهملين ، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم ، وهذا ظاهر الشناعة".

---

(١) إحياء علوم الدين : ج ٣ص٥٤ . * الحديث بلفظه لم أقف عليه إلا أن الإمام مالك روى حديثا عن معاذ بن جبل قال : آخر ما أوصانى به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين وضعت رجلى فى الغرز أن قال : أحسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل. موطأ الإمام مالك ص ٥٦١ كتاب حسن ...

وقد جاء فى القرآن الكريم ما يفهم منه هذا المعنى ،ألا ترى أن قوله (تعالى) :

(وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) (١)

لا يكون له معنى الا اذا كان للتذكرة أثر فى تهذيب الأخلاق وتقويم السلوك وكذلك قوله (تعالى) :

(٠٠٠ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ٠٠٠٠) الآية (٢)

من هنا نرى أن الغاية من دراسة علم الأخلاق هو بيان ما ينبغى أن يكون عليه الانسان فى سلوكه ــ وهذا

الخلق حديث رقم (١) صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقى ٠ ط الشعب ٠
والغرز : ركاب كور الجمل إذا كان من جلد أو خشب ، وقيل هو الكور مطلقاً ، مثل الركاب للسرج ٠
(٢) ــ تهذيب الأخلاق : ص ٥١

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٥ ٠
(٢) سورة الرعد : من الآية ١١ ٠

غاية الجانب النظرى ـ ثم التحلى بفضائل الأعمال والتخلى عن رذائلها ، وهذا غاية الجانب العملى .

∴ ∴

الفائدة من دراسة علم الأخلاق :

من الحقائق المعروفة والمسلم بها أن كل علم من العلوم يفيدنا في الميادين التي يبحث فيها هذا العلم ، ويمدنا بالنظريات والقواعد التي تجعل المعرفة في كل نواحيه واضحة متكاملة تبصرنا بأصوله وفروعه .

فعلم الطب مثلا يبين لنا الأمراض المختلفة ووسائل علاجها ويبصرنا بطرق الوقاية وكيفية توقي العدوى من هذه الأمراض ويشرح لنا القواعد الصحيحة التي تجعلنا أصحاء موفوري القوة والصحة والعافية .

لكن هل معنى هذا أن علم الطب يضمن لنا الصحة ويجعلنا دائما في أمان وسلامة من الأمراض وشرورها ؟ .

كلا إن هذا لا يتحقق إلا بأمرين :

أولاً : أن تكون بنية الإنسان قوية قادرة على مقاومة ميكروبات الأمراض والتغلب عليها .

ثانياً : أن يتبع الإنسان بنفس راضية كل القواعد الصحيحة ولا يهمل فيها .

وإذا أردنا أن نطبق ما ذكرناه من علم الطب على علم الأخلاق فإننا نقرر أن علم الأخلاق يبين لنا الفضائل المختلفة ويشرح لنا فوائدها الجمة الكثيرة .
وكيف أن المتحلي بها يكون الإنسان المثالي ويكون أقرب إلى الله (سبحانه وتعالى) . وأعلى منزلة وأنه يحيا حياة صالحة قويمة سعيدة . (١)

وهنا نتساءل : هل في استطاعة علم الأخلاق أن يجعلنا صالحين أخيارا كما تناولنا في علم الطب .

هل يستطيع أن يجعلنا أقوياء أصحاء ؟

---

(١) أبو بكر ذكرى : مباحث ونظريات في علم الأخلاق ص ٤٠
د / علي محمد فرغلي : في العقيدة الإسلامية القسم الثاني ص٥٨٩ دار الطباعة المحمدية ط. أولى ١٩٨٦م.

والجواب على هذا التساؤل أن علم الأخلاق ليس في استطاعته أن يجعل الناس أخيارا كما عجز علم الطب أن يجعلهم أصحاء وأنهم لكى يكونوا أخيارا لابد من توافر عاملين :

أولاً : أن يكون لدى المرء استعداد طيب ، وأن يكون ميالا بطبعه إلى الخير والتقوى والصلاح ، نافرا من الرذيلة بوازع داخلى من ضميره ووجدانه .

ثانياً : أن يتقبل أوامر علم الأخلاق وما يحض عليه من الفضائل وأن يؤمن برسالة علم الأخلاق ويحملها ويبشر بها .

إذن علم الأخلاق هو بمنزلة الطبيب فالطبيب يستطيع أن يبصر ويخبر مريضه بالأضرار التى تنجم عن شرب المسكرات ، ويصف له أضرارها ، ويصف له أيضا تأثيرها على العقل والجسم ، والمريض بعد ذلك بالخيار إن شاء اختار الامتناع عن الخمر لتتحصن صحته ، وإن شاء أبى الامتناع فتعتل صحته

وتفسد ، وليس فى استطاعة الطبيب منعه .

كذلك علم الأخلاق ، ليس فى استطاعته ومقدوره أن يجعل كل إنسان صالحا ولكن يفتح عينيه وينير له الطريق ليريه الخير والشر وآثارهما .

والإنسان بعد ذلك حر فى اختيار طريقه إما طريق الخير وإما طريق الشر فعلم الأخلاق لا يفيدنا ما لم تكن لنا إرادة تُنفّذُ أوامره وتجنبنا نواهيه .

أجل إنه يمكن لمن لم يدرس الأخلاق أن يحكم على الأشياء بأنها خير أو شر ويمكنه أيضا أن يكون صالحا حسن الخلق ، ولكن مثل دارس الأخلاق ومن لم يدرس كتاجر الصوف الخبير به ، ومن ليس كذلك إذا أراد كلاهما أن يشترى نوعا من الصوف ، كل يقع نظره على ما يقع عليه نظر الآخر ، وكل يلمس

ويمتحن ولكن ممارسة الأول وكثرة تجاربه تجعله أصدق حكماً وأحسن تقويما .

كل علم يمنح دراسه عوناً ناقدة فاحصة في دائرة الأشياء التي يبحث عنها العلم ، وكذلك الشأن في علم الأخلاق فدارسه أقدر على نقد الأعمال التي تعرض عليه ويقويمها تقويما مستقلا ، غير خاضع في أحكامه إلى إلف الناس وتقاليدهم ، بل هو يستمد آراءه من نظريات علم الأخلاق وقواعده ومقاييسه .

وأخيرا يجب أن نعرف أن أهداف علم الأخلاق ليست قاصرة على تحديد الفضائل والرذائل وتوضيح الخير والشر بل من أغراضه الهامة التأثير في إرادتنا وهدايتها والحث على أن نشكل حياتنا ونصبغ أعمالنا بالصبغة الحسنة حتى نحقق المثل الأعلى للحياة ، ويتحقق خيرنا وكمالنا ومنفعة الناس وخيرهم فهو يقوى إرادة الإنسان ويشجعه على عمل الخير .

ولكن علم الأخلاق لا ينجح في ذلك دائما فهو إنما يؤتي أثره ويؤتي أكله إذا طاوعته طبيعة الإنسان الخيرة وفطرته السليمة .

قال أرسطو (١) : فيما يتعلق بالفضيلة لا يكفي أن يعلم ما هي بل يلزم زيادة على ذلك رياضتنا على حيازتها ، واستعمالها أو إيجاد وسيلة أخرى لتصيرنا فضلاء وأخيارا ، ولو كانت الخطب والكتب قادرة وحدها على أن تجعلنا أخيارا لاستحقت - كما يقول تيوغنيس - أن يطلبها كل الناس وأن تشترى بأغلى الأثمان ولكن لسوء الحظ كل ما تستطيع المبادئ في هذا الصدد هو أن تشد عزم بعض فتيان كرام على الثبات في الخير ، وتجعل القلب الشريف بالفطرة صديقا للفضيلة .

---

(١) أرسطو : علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ج ٢ ص ٣٦٦ .

وفيما بعدها ".

والخلاصة أن الفائدة من دراسة علم الأخلاق هي :

١ - إنارة الطريق أمام الإنسان ليعرف الخير ويتجه إليه ويتمسك به ويعرف الشر ويتجنبه ، ويبتعد عنه .

٢ - التزام الإنسان بالقواعد والمعايير التي يضعها علم الأخلاق كي يكون على مستوى من الخلق يشيع الخير ويمنع الشر، ويسعد أولا ، ثم يسعد مجتمعه .

٣ - أن يكون الإنسان محباً للخير غير متسم بالأنانية ، فإذا كان قد عرف الخير وعرف الشر ، والتزم الأول ، ونفى الثاني . فإنه من أوجب الواجبات عليه أن ينير الطريق أمام الآخرين فينقل إليهم خبرته وتجاربه في مجال الخير والشر فيعرفهم الخير ويحضهم عليه، ويعرفهم الشر وينهاهم عنه .

وهو ما نعلمه من ديننا من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٤ - إن التزام الإنسان بما عرفه من الخير فعلا ، وما عرفه عن الشر نهيا ونفيا من شأنه مع الوقت ومع المزاولة، ومع الالتزام أن يجعل الإنسان مثالاً من الأخلاق الفاضلة .

وهذا كله لا يتحقق إلا من خلال دراسة علم الأخلاق .

وحتى إن تحقق دون دراسة ، فلن يكون بالوضوح والالتزام الذي يراه دارسو علم الأخلاق .

∴ ∴

العوامل المؤثرة في تكوين الخلق :

قبل الحديث عن العوامل المؤثرة في تكوين الخلق ، لابد أن نذكر أولا بإيجاز آراء بعض العلماء في تعريفهم للخلق حتى يتسنى لنا الحديث عن هذه العوامل .

فقد عرفه بعض الفلاسفة بأنه " عادة الإرادة " وعرفه آخرون بأنه : " تغلب ميل من الميول على غيره باستمرار " .

وهذان التعريفان يوافقان من حيث المعنى ما ذهب إليه وقرره الفلاسفة الإسلاميون أمثال : " مسكويه ، والغزالي " .

فقد عرفه الأول بأنه : " حال للنفس داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا روية . " (١)

وعرفه الغزالي بأنه : " هيئة في النفس

---

١) مسكويه : تهذيب الأخلاق ، وتطهير الأعراق ص ٥١ - قدم له الشيخ حسن تميم منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ .

راسخة ، عنها تصدر الافعال بسهولة ويسر ، من غير حاجة إلى فكر أو روية "٠ (١)

من خلال هذه التعريفات نجد أن الخلق صفة نفسية وهذه الصفة ثابتة ودائمة ٠ ومعنى هذا أن الخلق ليس أمرا خارجيا ، وبناء عليه فليس هناك علاقة ضرورية بين الخلق والفعل فقد يوجد من الشخص فعل معين ومع ذلك لا يكون ذلك الفعل خلقا له ، والعكس صحيح ، فقد يسخو شخص ما بقدر من المال مساعدة لفقير ، ومع ذلك لا يكون من خلقه السخاء لأن السخاء ليس عادة له ، وإنما سخا مرة تحت ظرف معين ٠ والعكس صحيح ، فقد يوجد شخص متصف بخلق السخاء ، ومع ذلك لا يصدر عنه سخاء بالفعل نتيجة ظروف خارج عنه ، كأن يكون معسرا لا يجد ما يسخو به ٠ وفي هذا المعنى يقول : "أفلاطون" : ـ

"إن الفضيلة لا تتحقق بعمل فاضل واحد ، ولكن لتكون حقيقة ينبغي أن تكون نتيجة لماضي عملي طويل "٠ (٢)

---

١) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٣ ـ ص ٥٢ دار إحياء الكتب العربية ٠
٢) مقدمة كتاب الاخلاق لارسطو : ص ٥٠ ترجمة أحمد لطفي السيد ٠

كيفية تكوين الخلق :

الخلق عبارة عن صدور الفعل عن الإنسان صدورا شبه آلى ، إذا ما حدث ظروف يتطلب حدوث ذلك الفعل. فلكى يكون السخاء مثلا أو الشجاعة خلقا لشخص ما ، لابد أن يصدر السخاء أو غيره من الصفات عن ذلك الشخص صدورا تلقائيا إذا ما وجد ظرف يتطلب السخاء على عكس ما إذا وجد السخاء ولكن ليس تلقائيا ، بل بناء على تفكير وتدبير ، فإنه لا يكون فى هذه الحالة خلقا ، لأن الخلق هو ما يصدر عن الشيء بلا تفكير أو روية .

وإذا كان هذا هو الخلق ، فكيف يتكون ذلك الخلق ؟ أو كيف تتكون عند الإنسان هذه الصفة الراسخة التى تصدر عنها الأفعال صدورا تلقائيا بلا فكر أو روية ؟

إن الإجابة على هذا السؤال تكمن فى عملية التكرار ، فإن الخلق يتكون عن طريق التكرار ولمزيد من الإيضاح نقول :-

إن مرور العمل الإنسانى الإرادى بالمراحل الأربعة

التى أشرت إليها سابقا . من الإدراك ، والموازنة والإختيار والتصميم ، والتنفيذ . واحساس الإنسان عند قيامه بالبذل واخراج الصدقة أول مرة بالرضا والسعادة والارتياح النفسى مرة بعد أخرى . ففى المرات التالية سوف تقل العمليات العقلية أو المراحل التى ذكرتها من قبل عن المرة الاولى فإذا تكرر نفس الموقف كان الإنسان إلى البذل أسرع ، وكانت العمليات العقلية أقل ، وذلك لانه اعتاد صدور هذا الفعل فأصبح صدوره منه شبه آلى أى دون فكر أو روية .

ولبيان ذلك أكثر نضرب مثالا لشخص يتخلق بخلق السخاء والبذل ، لنرى كيف تكون عنده هذا الخلق؟

لنفرض أن شخصا طلب منك صدقة ، فما الذى يحدث ؟

سوف تحدث المراحل الاربعة التى ذكرتها آنفا والتى يمر بها العمل الإنسانى الإرادى .

فأول شيء يحدث أنك تدرك أن شخصا ما يطلب منك صدقة ، ثم تبدأ فى الموازنة هل تعطيه أولا؟ وهذه الموازنة ستعتمد على مقدار ماتستطيع أن

تبذله أنت بالإضافة إلى مقدار حاجته هو في نظرك إلى المال . ثم تنتهي الموازنة بأن توجح وتختار جانب البذل على جانب المنع ثم تمنحه قدرا من المال ، وتنطلق إلى سبيلك . وهذا البذل له رد فعل نفسي ، فأنت بعد أن بذلت للرجل من مالك تشعر بارتياح ورضا نفسي وسعادة ، فلو أن هذا الفقير ، أو فقيرا غيره قابلك مرة ثانية وطلب منك صدقة ، فالذي سيحدث أنك ستبذل له ما طلب . ففي المرة الثانية سيبذل الإنسان نتيجة أو طلبا لما وجده وشعر به من رضا نفسي وسعادة بعد ذلك في المرة الأولى ، وفي المرة الثانية سوف تقل العمليات العقلية أو المراحل التي ذكرتها من قبل ، عن المرة الأولى ، ثم إذا تكرر نفس الموقف كان الإنسان إلى البذل أسرع وكانت العمليات العقلية أقل ، حتى يصل بعد عديد من المرات المشابهة إلى مرحلة يحدث منه نفس الفعل حدوثا شبه آلي ، فكلما وجد فقيرا يطلب منه صدقة وجدنا يده بدء في جيبه ويخرج قدرا من النقود ويعطيه للفقير ، وهذا الفعل يحدث

من الإنسان حدوثا شبه آلي أي دون فكر ولا روية وذلك نتيجة كثرة المزاولة لهذا الفعل والتعود عليه وعند الوصول إلى هذه المرحلة يكون المرء قد اتصف بخلق البذل ، وأصبح البذل خلقا له .

ومثل ذلك يقال بالنسبة لكل خلق يتصف به المرء ، سواء كان خلقا حسنا أو سيئا .

عوامل تكوين الخلق :

يقصد بها العوامل التي تؤثر في شخص ما فتجعله يميل إلى خلق معين دون آخر

فهي التي تجعل إنسانا ما يميل إلى السخاء دون البخل ، وتجعل آخر يميل إلى الشجاعة دون الجبن ، وهكذا .

فما هي هذه العوامل ؟

جرت عادة علماء الأخلاق أن يردوا هذه العوامل إلى عاملين إثنين هما :

١ ـ البيئة .

٢ ـ الوراثة .

ويهمنا في البداية أن نعرف ما هي الوراثة ؟ وما هي البيئة ؟ وما كيفية تأثيرها على الأخلاق ، وهل التأثير في الأخلاق مقصورا عليهما أو أن هناك عوامل أخرى لها دخل كبير في تكوين الخلق ؟

أولا : الوراثة :

الوراثة هي: انتقال بعض صفات الأصل إلى الفرع قل ذلك أم كثر .

ومعنى هذا أن الفرع يرث صفات وخصائص عن الأصل وهذا ما لاحظه علماء الحياة في بحثهم عن أصل الأنواع . (١)

فالخصائص التي يرثها الفرع عن الأصل كثيرة ويمكن ارجاعها إلى واحد من ثلاثة :

١ - وراثة الخصائص الجسمية .

٢ - وراثة الخصائص العقلية .

---

١) لمزيد من التفصيل : راجع : أصل الأنواع : لداروين . ترجمة اسماعيل مظهر .

٣ ـ وراثة الخصائص الخلقية ٠

ويمكن تقسيم الخصائص التى تورث باعتبار آخر إلى :

١ ـ خصائص فطرية ٠

٢ ـ خصائص مكتسبة ٠

هذا ولقد اختلف العلماء بالنسبة للخصائص أو للصفات المكتسبة هل تورث ؟ أولا تورث ؟

هناك خلاف بين الباحثين فى هذه المسألة :

الرأى الأول :

وهو رأى فريق من العلماء المحدثين وعلى رأسهم أصحاب مذهب النشوء والارتقاء أمثال " لامارك " و " دارون " و " هيجل " و " سبنسر " يقولون : إن الصفات المكتسبة تورث كالصفات والخصائص الفطرية

وقد إستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة من أهمها :

١ ـ "إن سواد البشرة فى سكان المناطق الحارة لم يكن طبيعيا فى أصولهم (أجدادهم الأول) وإنما إكتسبوه إكتسابا تحت تأثير البيئة الطبيعية ، وأصبح على توالى الأيام والزمن

صبغة وراثية يأخذها الفرع عن الأصل ». (١)

٢ - جرت عادة الإسكيمو - سكان المناطق الشمالية في أمريكا - أن يقطعوا أذناب كلابهم التي يعدونها لجر عرباتهم على الثلج . وقد لوحظ أن معظم أولاد هذه الطائفة من الكلاب تولد بدون أذناب . (٢)

ومعنى هذا أن هذه الصفة المكتسبة تنتقل من الأصل إلى الفرع .

الرأي الثاني :

يرى أصحاب هذا الرأي أن الصفات المكتسبة لا تورث كالصفات الفطرية .

واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة أهمها :

١ - أن عادة الختان موجودة لدى العرب وبني إسرائيل منذ زمن بعيد ومع ذلك يولد الأبناء غير مختونين .

---

(١) د/علي عبد الواحد وافي : الوراثة والبيئة نقلا عن : منصور علي رجب . تأملات في فلسفة الأخلاق ص ١١٩ الإنجلو المصرية الطبعة الثانية ١٩٥٥ م .

(٢) نفس المرجع .

٢ - يلبس الصينيات أحذية حديدية لتصغير أقدامهن منذ عصر بعيد ، ومع ذلك لم تصغر أقدامهن بطريق الوراثة .

٣ - نجد أن عادة الوشم منتشرة عند بعض القبائل ومع ذلك لم تنتقل هذه الصفة من الأصل إلى الفرع ، فأولادهم يولدون غير موشومين .

٤ - تعلم القراءة والكتابة صفة قديمة في البشر منذ آلاف السنين ومع ذلك لم يولد طفل يقرأ أو يكتب . (١)

مما سبق يتضح التضارب والإختلاف الذى يشمل الرأيين وإن كل منهما ليس على صواب في كل ما ذهب إليه .

والحق في هذه المسألة ان الصفات المكتسبة لا تورث إلا إذا مضى عليها زمن طويل تتأصل فيه

---

(١) راجع : منصور على رجب : تأملات في فلسفة الأخلاق ص ١٢٠ ،
د / محمود مزروعه : دراسات في علم الأخلاق ص ٣٤ وما بعدها .

حتى تؤثر فى الجهاز العصبى للإنسان وبذلك تخرج عن دائرة الصفات المكتسبة إلى دائرة الصفات الفطرية أو الطبيعية .

ومن هنا نستطيع أن نقصر الخصائص التى يرثها الفرع عن الأصل على إثنين فقط من الثلاثة المذكورة هى :

١ — وراثة الخصائص الجسمية .
٢ — وراثة الخصائص العقلية .

أما وراثة الأخلاق فنحن لا نقول إطلاقا بأن أخلاق الوالد تنتقل إلى الولد عن طريق الوراثة ولكنها إن وجدت فى الولد فليس ذلك عن طريق الوراثة — كما يظن البعض — ولكنه ناتج عن البيئة وأسلوب التربية .

وهنا يرد سؤال :

— إذا كانت الأخلاق لا تورث . فكيف تكون الوراثة إذن عاملا من عوامل تكوينها ؟

والجواب على ذلك أن الخصائص الجسمية التي يرثها الشخص عن أصوله القريبة أو البعيدة هذه الخصائص لها دخل كبير في تكوين الخلق عند الشخص. لأنها تتدخل في تكييف نفسيته، وفي تكوين تفاعلاته مع الآخرين إيجابا أو سلبا. هذه التفاعلات هي تعبير عن الأخلاق وصدى لها.

فالشخص الذي ورث عن أصوله خلقا سويا، وشكلا مقبولا، خلا من العيوب الخلقية، والعاهات الجسدية، مثل هذا الشخص غالبا ما نراه يندمج في المجتمع، ويتفاعل معه بنفس منطلقة، وتصرفات سوية، بعيدة عن العقد والرواسب النفسية.

وذلك بعكس شخص آخر ورث عن أصوله بعض العيوب الخلقية، كالقصر والدمامة، أو بعض العاهات فمثل هذا الشخص نراه غالبا منطويا على نفسه بعيدا عن المجتمع، وكثيرا ما تترسب في نفسه العقد والأمراض

النفسية ، وكثيرا ما يخلق قلبه على الحقد للمجتمع، والحسد للأسوياء من الناس .

مما لا شك فيه ان هذين الشخصين لا يمكن أن تكون أخلاقهما على مستوى ونسق واحد . لا بد أن تختلف أخلاق هذا عن أخلاق ذاك .

هذا هو دور الوراثة في تكوين الخلق عند الإنسان. ودور الوراثة لا يتعدى هذا المعنى إطلاقا. فليس هنا لك أساس للقول بأن الأخلاق تورث .

هذا بالإضافة إلى أن القول بأن الأخلاق تورث كما تورث الصفات والخصائص الجسمية يهدم الحكمة من الأديان ، ويبطل جدوى التربية والتعليم ويخفى على أثر التأديب والتهذيب . لأنه ما دامت الأخلاق تورث كالخصائص الجسدية فلا أمل في تغييرها ، ولا طمع في تحسينها ، وأكثر من ذلك أن القول بوراثة الأخلاق يهدم المسئولية الشخصية

التى هى أساس الحساب والثواب أو العقاب.

اذ أساس المسئولية الفردية هى الحرية فى الاختيار. والقاعدة الأخلاقية تقول :

" لا واجب على من سلب الحرية " .

فإذا ما وجد شخصان ورث أحدهما عن أبيه الأخلاق الفاضلة ، وورث الآخر عن أبيه الأخلاق السيئة ، فأى فضل للأول ؟

وأى وزر على الآخر ؟

إن العدل يقتضى ألا يثاب الأول أو يعاقب الآخر مادام الأمر كله موكولا للوراثة ، وما دام المرء أمام الوراثة مجبورا لا حرية له .

ومن هنا يتضح لنا خطأ الذين يذهبون إلى أن الأخلاق تورث . نعم ، نحن لا ننكر أن للوراثة يدا ودورا فى تكوين الأخلاق ولكن ليس ذلك لأن الأخلاق تورث ، بل لأن الصفات والخصائص الجسدية التى يرثها الفرع عن الأصل ، أو الابن عن أبيه لها دخل كبير فى تكوين أخلاق الإنسان على الكيفية التى أوضحناها من قبل .

البيئة :

هى كل ما يحط بالانسان ويؤثر فيه بطريق مباشر أو غير مباشر منذ كونه جنينا فى بطن أمه إلى أن توافيه المنية .

وعلى الإنسان أن يستجيب لما حوله من مؤثرات بيئية ، ويكيف نفسه تبعا لمقتضياتها .

أقسام البيئة :

تنقسم إلى قسمين :

١ - بيئة طبيعية .

٢ - بيئة اجتماعية .

البيئة الطبيعية :

هى كل ما يحيط بالمرء من مظاهر الطبيعة مما لا دخل للإنسان فى تكوينه أصلا أو ادخال تعديل عليه . وذلك مثل الأرض ، والماء ، والهواء ، والأنهار

والبحار ، والسهول ، والوديان ، والصحارى ... الخ

أما البيئة الاجتماعية فهي كل ما يحيط بالمرء مما سوى مظاهر الطبيعة ولـه دخل فيها مثل المنزل ، والمدرسة ، والجامعة ، والنادي ، والأصدقاء ، والكتب ، والصحف ، والمجلات الى آخر ما يدخل في دائرة سيطرة العقل البشري والإرادة الإنسانية .

والفرق بينهما أن البيئة الطبيعية لا دخل للإنسان في تكوينها أو إدخال تعديل عليها ــ

أما البيئة الإجتماعية فللإنسان دخل فيها من ناحية أن للعقل والإرادة البشرية سيطرة وهيمنة عليها .

فالبيئة لها أثر كبير في تكوين الأخلاق سواء في ذلك البيئة الطبيعية ، والبيئة الاجتماعية

فلكل منهما أثره الذى لاينكر فى الأخلاق .

أثر البيئة الطبيعية :

للبيئة الطبيعية أثر ودور فعال فى تكوين الأخلاق. يؤكد ذلك ما ذهب إليه العلامة ابن خلدون أثناء حديثه عن سكان المناطق المعتدلة حيث قال أنهم : أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا "(١)

وإذا نظرنا إلى الواقع نرى مدى صدق ما ذهب إليه ابن خلدون حيث إننا نجد أن سكان الأقاليم والمناطق الحارة كسالى ، طائشين لا يقدرون المسئولية ، ولا يفكرون إلا فى حاضرهم فقط ، بينما نجد سكان المناطق المعتدلة يتميزون باليقظة وتقدير المسئولية والتفكير فى المستقبل .

---

(١) المقدمة : ص٧٦ طبعة دار الشعب (فصل فى المعتدل من الأقاليم المنحرف ، وتأثير الهواء فى ألوان البشر والكثيرمن أحوالهم .

لا شك أن الاختلاف بين هؤلاء وأولئك إنما يرجع للاختلاف بين البيئتين .

أثر البيئة الاجتماعية :

للبيئة الاجتماعية أثر واضح في تكوين الأخلاق، وتأثيرها أقوى وأشد من تأثير البيئة الطبيعية، وذلك لأن العوامل الطبيعية جامدة على حال واحدة، بخلاف العوامل الإجتماعية فإنها ثمرة النمو الفكري والعقلي، والنضج الوجداني للنوع الإنساني. بل إن الإنسان بفضل تقدمه الفكري والحضاري قد استطاع أن يتحكم ويغير في البيئة الطبيعية التي يعيش فيها. فاستصلح وزرع الصحاري القاحلة وشق فيها الأنهار وأقام على جوانبها القصور المنيفة ذات الحدائق الغناء، ومهد الطرق للنقل، ومد السكك الحديدية ...... الخ .

وهذا إن دل فإنما يدل على أن البيئة الاجتماعية أشد فاعلية فى رقى المجتمع والسير به إلى الأمام وبالتالى أشد أثرا فى تكوين الأخلاق .

وتبدأ البيئة الاجتماعية * للإنسان منذ كونه جنينا فى بطن أمه فمنها يتغذى وغذاؤه هذا يتأثر بما يحيط بها من حالات نفسية كالفرح والحزن والخوف .... الخ وبكل ما يحيط بها من مؤثرات ، ويكتنفها من ظروف .

لذلك ينبغى أن تبدأ تربية الطفل منذ كونه جنينا فى بطن أمه لا من يوم ولادته

---

* + هناك خلاف حول البيئة الأولى للإنسان وهى (بطن الأم) من ناحية كونها بيئة طبيعية أو اجتماعية .

والحقيقة أننا إذا نظرنا إليها باعتبار أنه لا دخل للإنسان فيها فهى بيئة طبيعية وإذا نظرنا إليها باعتبار أن ما يحدث للأم يؤثر فى الجنين فهى بيئة اجتماعية بهذا الاعتبار ، والحق أنها الاثنين معا .

كما يظن البعض فالتجارب الحديثة التى أجراها العلماء ولا زالوا يجرونها على النفس الإنسانية تؤكد هذه النظرية .

والمثلان الآتيان يوضحان كيف يتأثر الجنين فى بطن أمه بما تتأثر هى به :

١ - عاش الفيلسوف الانجليزى " توماس هوبز " طوال حياته يشكو من ألم الانكماس " والخوف " ويعزوهما إلى إنزعاج أمه عندما إقترب الإسطول الاسبانى (أرمدا) من شواطئ انجلترا . وكان آنذاك جنينا فى بطن أمه " . (١)

٢ - أن " مارى استيوارث " إبنة " جاك الاول " ملك انجلترا كانت قد تزوجت بغونسوا

---

(١) نقلا عن منصور على رجب : تأملات فى فلسفة الاخلاق ص١٥٣ .

الاول . ملك فرنسا ، وترملت بعد زواجها بسنة وعادت إلى وطنها الاول إنجليرا عام ١٥٦٠ م - واقترنت بابن عمها " هنرى دارنلى " ، وكان أصغر منها سنا ، فظهر لها فيه ضعف أخلاقه ونهيته ، فأبطأت فى منحه امتيازات الملكية وحقوقها ، فأغتاظ واتهم فى ذلك أحد أفراد حاشيتها ، ففتك به على مرأى منها ، فدبرت لقتله ، ونفذت ما أرادت ، ثم تزوجت من قاتل " له فغضبت عليها بلادها وأودعتها غياهب السجون جزاء ما فعلت وكانت فى ذلك الوقت حاملا فى ابنها " جاك " الذى صار فيما بعد " جاك الثانى " ملك انجلترا ، وقد أثرت هذه الاحداث فيه حتى صار الجبن أخص صفاته ، بل صار ضربا للأمثال فى الجبن حتى قيل إنه كان يرتعد إذا رأى سيفا يسل من غمده أمامه . (١)

(١) أحمد فهمى العمروسى : فى التربية الإسلامية ص ٧٢ .

ثم يأتي بعد "بطن الأم" دور المنزل والأسرة وفيه يفهم الطفل العلاقات الإجتماعية الأولى فيعرف معنى الطاعة للكبير والعطف على الصغير، واحترام رأى الغير . وبالجملة يأخذ الطفل عن الأسرة تقاليدها وعاداتها .

ولا نعدوا الحقيقة إذا قلنا :

إن أدق مراحل حياة الإنسان هي مرحلة الطفولة ففيها يتشرب جميع القيم . والأم في هذه المرحلة هي أهم الموصلات الحضارية . فهي المنبع الأول الذى يشرب منه الوليد نهلا وريحيقاً . فهي أول معلم له يحبه ويطيعه .

فللأم دور خطير في تربية الأطفال

وصدق الشاعر إذ يقول : يقول (حافظ ابراهيم)

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق .

ويلى دور الأم في التربية دور مرافق التعليم والتوجيه

من مدرسة وجامعة ، ومسجد ، ووسائل اعلام ...... الخ .

فالإنسان من خلال المدرسة ،والجامعة ، والمسجد ، يلتقى بالأصدقاء يأخذ من أخلاقهم ويعطيهم من أخلاقه بحكم المعاشرة وسرعة الإستجابة وخاصة فى المراحل الأولى من حياة النشئ .

فللأصدقاء دور كبير وأثر فعال فى تكوين الأخلاق ، فما من شيئ أدل على شيئ ولا الدخان على النار ، من الصاحب على الصاحب كما يقول ابن مسعود " ولما كان المرء فى حاجة ماسة إلى الصداقة بحكم أنه كائن اجتماعى بطبعه فعليه أن يختار الأصدقاء ومن طرق المران على الفضيلة أن يعيش المرء مع اناس أخيار كما يقول "أرسطو" ، فلقد شبه الرسول (ص) الصديق الصالح ببائع

المسك ، والطالح بنافخ الكير ، يقول صلى الله عليه وسلم : " مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد ، لا يعدمك من صاحب المسك إما أن تشتريه أو تجد ريحه ، وكير الحداد يحرق بدنك أو ثوبك ، أو تجد منه ريحا خبيثا " .

ولقد بين القرآن الكريم عاقبة من إتخذ خليلا ذا خلق سيئ ، قال تعالى :

" ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني إتخذت مع الرسول سبيلا ، يويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا " . (١)

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٢٧ ـ ٢٩

فاتخاذ الأصدقاء الأصفياء أمر حثت عليه الشرائع ، ورغب فيه الحكماء ، قال صلوات الله وسلامه عليه :-

" لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيئ إذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام بينكم " .

وقال على رضى الله عنه : " عليكم بإقتناء الإخوان . فهم عدة فى الدين والدنيا ألا ترى الى قول الله عز وجل حكاية عن أهل النار فى النار . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم .

وقيل لابقراط : ما أفضل مايقتنى الإنسان ؟ فقال : " الصديق المخلص " . وقد احسن من قال : " ان الاخ الصالح خير لك من نفسك لأن

نفسك قد تأمرك بالسوء ، والاخ الصالح لا يأمرك إلا بالخير .

٭ ٭

العامل الثالث : المزاج الشخصى أو التكوين النفسى

تحدثنا فيما سبق عن الوراثة والبيئة باعتبارهما عاملين موثرين فى الاخلاق ، وعلماء الاخلاق يهتمون بهذين العاملين دون سواهما وكأنه ليس هناك موثر فى الاخلاق سوى هذين العاملين .

والحقيقة أننا نشاهد فى واقع حياتنا أن هناك أشخاصا تتحد بالنسبة إليهم البيئة والوراثة ، ومع ذلك تختلف أخلاقهم إختلافا بيناً .

فكثيرا نشاهد أخوين شقيقين ، بل كثيرا ما نشاهد توأمين ، الاب واحد ، والام واحدة

والحمل واحد ، والوضع واحد ، والبيئة بشقيها الطبيعى والإجتماعى واحدة ، ورغم كل ذلك نشاهد اختلافا بينا بين أخلاق كل منهما ، فواحد شرير ، والآخر خير ، وذلك الذى نشاهده ، يجعلنا نتساءل : ما الذى أدى الى هذا التغير فى أخلاق هذين الشقيقين أو التوأمين ؟
وإذا كانت عوامل الوراثة والبيئة قد اتحدت بالنسبة اليهما ومع ذلك اختلفت أخلاقهما . فلابد أن هناك عامل آخر أدى الى ذلك الاختلاف .

هذا العامل هو المزاج الشخصى أو التكوين النفسى :

وعامل المزاج الشخصى هذا ليس منفصلا فى واقعه عن الوراثة أو البيئة . اذ أنه يرد فى جانبه الاكبر الى الوراثة ، ويرد فى قليل منه الى البيئة . ولكن الذى يدعونا للحديث عنه

أمران :

الاول : إنه لا يختص بالوراثة وحدها أو البيئة وحدها ، وإنما هو جامع بين الاثنين ، فالكلام عن الوراثة وحدها ، أو البيئة وحدها غير كاف في توضيحه ، اذ هو مزيج من الاثنين معا ، ولذا كنا في حاجة الى الكلام عنه في ضوء الوراثة والبيئة جميعا .

الثاني : أنه يفسر لنا ذلك الأمر المحير ، حين تتحد البيئة والوراثة ، ومع ذلك تتباين الأخلاق .

وعامل التكوين النفسي هو الذي يفسر لنا لماذا تختلف أخلاق الأفراد رغم إتحاد البيئة ومصادر الوراثة عندهم . والمزاج الشخصي له دور كبير كعنصر أساسي في تكوين الاخلاق .

ويرى جمهرة الباحثين ان المزاج هو :

" مجموعة الخصائص الفسيولوجية التى تؤثر فى الخلق ". (١)

أى أنه نتيجة للكيفية التى يمتزج بها مافى جسم الإنسان من عناصر كيماوية .

ونظرا لأن المزاج له أهمية كبيرة فى تكوين شخصية الانسان واخلاقه ، فقد عنى بدراسته الباحثون الذين قسموا الناس بالنظر إلى اختلاف الامزجة الى انماط اربعة :

(الدموى ، والصفراوى ، والسوداوى ، والبلغمى)

الاول : يمتاز بانه متفائل ومرح ونشط .

الثانى : يمتاز بالعنف والصلابة وسرعة الغضب .

الثالث : يمتاز بانه كثير التأمل ، دائم الاكتئاب والتشاؤم .

الرابع : فيمتاز بانه سطحى وخامل وبليد وشره .

وإن قيل أن الاساس العلمى لهذه النظرية

(١) د / توفيق الطويل وآخرون : مشكلات فلسفيه ص ١٧٤

ضعيف ، لأنه ينبني على أساس العناصر الأربعة التي زعم الفيلسوف "أمبذوقليس" أنها أساس كل شيء في الوجود ، وهي الماء ، والهواء والنار والتراب . فلا شك أننا نلاحظ شيوع بعض هذه الصفات في هذا الفرد أو ذلك ، وأنها تصدق في كثير من الأحيان .

مما تقدم يتضح لنا أن عوامل تكوين الخلق هي : الوراثة ، البيئة ، وعامل ثالث هو مزيج من الوراثة والبيئة معا ، وهو المعبر عنه بالمزاج الشخصي ، أو التكوين النفسي .

في النهاية نود أن نقول :

إذا كانت هذه هي عوامل تكوين الخلق
فأيهما أقوى تأثيراً في تكوين الأخلاق ؟
أم أنها على درجة متماثلة في التأثير ؟

والجواب : أن هذه العوامل غير متماثلة في التأثير أما أيها أقوى تأثيرا ؟ فذلك خاضع للظروف .

فهناك ظروف يكون فيها تأثير الوراثة أو المزاج أقوى ، وهناك ظروف أخرى يكون فيها تأثير البيئة أقوى .

فمثلا فى البيئات الصحراوية حيث الإنسان يقضى معظم وقته منذ طفولته فى رعى الغنم أو الإبل ، وحيث تكاد تنعدم المؤسسات التربوية وحيث ينفق الإنسان جل وقته وحيدا وراء أغنامه أو ابله أو قافلته ، فى هذه البيئة يكون عامل المزاج الشخصى ، وعامل الوراثة لهما التأثير الاقوى فى تكوين الاخلاق . (١)

أما فى المجتمعات المتحضرة مثل مجتمعاتنا فإن تأثير البيئة والتربية اقوى ، حيث يخضع الإنسان منذ طفولته لنظام التربية والتهذيب والتعليم ، وحيث يعمل المجتمع من خلال نظم التربية هذه على ان ينشأ الاطفال على الصورة التى يريدها هو ، لا على الصورة التى تؤهلهم لها تكويناتهم النفسية أو أمزجتهم الشخصية .

(١) راجع : د/محمود مزروعه : دراسات فى علم الاخلاق ص٤٢ وما بعدها

المسئوليـــة الخلقيـــــة

تعريف المسئولية :

تعرف فى إطارها العام بأنها " إقرار المرء بما يصدر عنه من أفعال واستعداده لتحمل نتائجها " .

فكل إنسان مسئول عن أفعاله وماينتج عنها من تقصير أو إهمال فالمدرس مثلا مسئول عن نتائج عمله الدراسى وكذلك الطبيب أيضـــا مسئول عن مرضاه والوالد مسئول عن أولاده ، وهكذا كل راع مسئـــول عن رعيته ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول " كلكـــم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عـــن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته " .

مما سبق نرى أن الإقرار بالمسئولية لايكفى ، بل لابد من تحمل نتائج الأفعال التى تصدر عن الإنسان ، وهذه النتائج إما أن تكـــون معنوية وتتمثل فى "الاحتقار أو الاحترام" أو قانونية وتتمثل فــــى " الثواب أو العقاب" أو اقتصادية وتتمثل فى "التعويض المالى عـــن الضرر اللاحق للضحية ، أو دينية وتتمثل فى "النعيم أو الجحيم فـــى الآخرة أو أخلاقية وتتمثل فى " المدح أو الذم " .

من التعريف السابق للمسئولية رأينا أنها تشمل المسئولية الطبيعية والقانونية والاجتماعية والخلقية والدينية .

فالإنسان الذى يعيش وسط نواميس طبيعية عليه أن يتحمل تبعات أفعاله إن خرج عن هذه النواميس فالنار من طبيعتها أن تحرق من يلمسها . فإذا ما وضع إنسان ما يده فيها فعليه أن يتحمل ألمها وإحراقها . فهذا عقاب أو جزاء لمن يتحدى نواميس الطبيعة .

وعندما يخرج الإنسان عن القوانين السياسية أو الوضعية عليه أن يتحمل جزاء هذا الخروج فمثلا الذى يتعدى على مال الغير بالسرقة عليه أن يواجه بالحبس أو التغريم أو بهما معا .

ومثل ذلك يقال أيضا فيمن يتحدى تقاليد الجماعة وأعرافها . كذلك الذى لايشارك جيرانه فى أفراحهم وأتراحهم فإن المجتمع ينظر إليه نظرة نتيجة تقصيره تتسم بالاحتقار والازدراء بل قد ينبذ ونه .

أما من يرى محتاجا للمساعدة ويمسك أو يمتنع عن بذل هذه المساعدة مع قدرته على ذلك فإن القانون الخلقى يحكم عليه بأنه شرير ويعاقبه على ذلك عن طريق ضميره الذى يتولى تأنيبه وتعذيبه .

وحينما يخرج المرء عن تعاليم دينه ويعصى ربه ويرتكب المحرمات فإن عقابه فى الآخرة أن يدخل جهنم وبئس المصير .

ومما يلاحظ أن هذه المسئوليات المختلفة قد تجتمع فى جريمة واحدة يكون فيها خروج عن الطبيعة والقانون السياسى والاجتماعى والأخلاقى والدينى وذلك حين يرتكب شخص ما جريمة قتل بغير حق ففى هذه الجريمة تحد لكل القوانين وهو مسئول عن مخالفته لكل قانون منها .

المسئولية الخلقية هى " حالة للمرء يكون فيها أهلا للحكم عليه أو على عمله بالخير أو الشر " .

مما سبق نرى أن الإنسان فى كل أنواع التبعات المتقدمة يكون مسئولا عن عمله أمام قوة خارجة عن ذاته فهو مسئول أمام الطبيعة أو القانون السياسى الذى تمثله الدولة أو المجتمع أو أمام الله سبحانه وتعالى ، إلا فى المسئولية الخلقية فإنه لايكون مسئولا أمام قوة خارجة عنه تثيبه أو تعاقبه ولكنه مسئول أمام قوة داخلية هى ضميره إذ ليس هناك فى التبعة أو المسئولية الخلقية إلا قوة الضمير فهو الذى يحاسب الإنسان على نتائج عمله فى الإحسان بالشعور بالسعادة والرضا وفى الإساءة بالتأنيب والتعذيب ، لذا فإن المسئولية الخلقية فى حاجة إلى تعريف يحفظ لها هذه الخاصية التى خالفت بها المسئوليات الأخرى ،فيمكننا أن نعرفها بناء على ماتقدم بأنها " التزام أدبى حر

أمام قوة ذاتية داخلية دون خوف عقوبة أو انتظار مثوبة خارجية " .

شروط المسئولية الخلقية :

للمسئولية الخلقية شروط معينة إن توافرت في شخص ما كان أهلا لتحمل تبعات ما يصدر عنه من أفعال فيكون مسئولا عنها ومؤاخذ بها ، وهذه الشروط هي :

١ـ القدرة على التمييز بين الخير والشر ، فالطفل الصغير والرجل الذى فقد قواه العقلية والحيوان الأعجم كل هؤلاء غير مسئولين عن نتائج مايصدر عنهم من أفعال ، فمثلا الرجل الذى فقد القوة العاقلة إذا تعدى على الآخرين لايكون مسئولا عن نتيجة هذا التعدى ، وكذلك الطفل ، والعلة فى ذلك هى انعدام المسئولية أى انعدام قدرتهم على التمييز بين الخير والشر .

٢ـ المعرفة المتبصرة بعواقب الأمور بعد فهمها وإدراك نتائجها التى تنبنى عليها ، ومن هنا كان الحيوان غير مسئول ، فمثلا لو رأى حصان مزارع خضراء فاستهوته فأخذ يعدو بسرعة نحوها فألقى براكبه على الأرض ، فإنه لايعتبر مسئولا عن سقوط راكبه مهما كانت العواقب ، لأنه وإن كان متصورا العدو الذى يوصله إلى هذه المزارع ، إلا أنه لايعرف عاقبته كما أنه لا يميز بين العدو وعدمه حتى يختار أحدهما .

٣- الحرية ، فلا مسئولية على الإنسان الذى يوجد فى عالم خال من الحرية تسود ، الجبرية المطلقة ، أيضا لامسئولية عندما يوجد القهر والإجبار على فعل الأشياء ، فلو أجبر إنسان قوى آخر ضعيفا أن يقتل رجلا ما فقتله ، فمن المسئول ؟ هل المُكْرَه أو المُكْرِه ؟ لاشك حينئذ أن المُكْرَه غير مسئول لأنه غير مختار حيث لا حرية له ولا إرادة إنما المسئول هو المُكْرِه الذى أجبره على القيام بهذا الفعل .

٤- النية والقصد ، فلو رأيت فى الطريق شخصا تبدو عليه معالم البؤس والفاقة فمنحته قدرا من المال كى يعينه على ما هو فيه ، فأخذ الشخص هذا المبلغ وأسرع إلى مكان لشرب بعض الأشياء المحرمة فمن المسئول عن هذا العمل ؟ رغم أنه لولا النقود التى منحتها له ما ارتكب هذا الفعل ، إن المسئول عنها هو الشخص نفسه أما أنت فتعفى من المسئولية لعدم توافر النية والقصد إلى هذه المعصية لأنك نويت خيرا وقد حوله الآخر إلى شر فيكون هو المسئول .

درجات المسئولية الخلقية :

ما تقدم كان حديثا عن شروط المسئولية الخلقية والتى إن توافرت فى شخص ما يكون مسئولا ، وإن لم تتوافر فيه كلها لايكون مسئولا عما

يصدر عنه من أفعال أو أقوال ، وإذا فقدت بعض الشروط وتوافر لـه البعض الآخر كانت مسئوليته على قدر ما توافر له من هذه الشـروط إلا أنه يجب أن نلاحظ أن هذه الشروط قلما تجتمع فى شخص واحد بدرجة واحدة أثناء قيامه بعمل معين ، وأحيانا تجتمع هذه الشـروط لكن بصورة غير كاملة ، وقد توجد بعضها بصورة كاملة والبعض الآخـر بصورة أقل ، ذلك أن وجود هذه الشروط وكمالها يتوقف على عـدة أمور منها : ظروف الشخص نفسه وحالته النفسية أثناء القيام بالعمل ، فالشخص قد يكون مجنونا ،أوفى حاجة سكر ، أو غاضبا ، أو خائفـا ، أو كثير النسيان ، فكل هذه الحالات تخفف مسئوليته عن عملـه بمقدار مايترتب عليها من فقدانه لكل هذه الشروط أو بعضها .

الجـــــزاء

تكلمنا فيما سبق عن المسئولية الخلقية ، والآن نتكلم عن الجـزاء لأنه ناتج عن المسئولية ومترتب عليها وهو نتيجة حتمية لازمة لتحمـل الإنسان تبعة عمله ، ويعرف الجزاء بأنه " الثواب على فعل الخير ، والعقاب على فعل الشر " .

والجزاء بهذا المعنى يتناول أنواعا كثيرة هى الجزاء الطبيعى والقانونى ، والاجتماعى ، والأخلاقى ، والأخروى .

١ ــ الجزاء الطبيعى : يشمل ما يترتب على انتهاك الإنسان لقوانيـن الطبيعة من آلام جسمية وعقلية ، وما يترتب على اتباع هـــذه القوانين من صحة وسعادة وسلامـة .

فالإنسان الذى ينتهك القوانين الطبيعية ويعمل فوق طاقـة جسمه أو يسرف فى السهر أو الأكل أو الشرب لاشك أن جـزاءه فى هذه الحالات عقاب طبيعى يتمثل فى الأضرار التى قد تلحق به ، وهذا بخلاف من يسير على نظام معين فيما يتصل بصحـة الجسم ، ونشاط العقل ، والاعتدال فى كل الأمور دون إفـراط أو تفريط حيث يكون الجزاء فى هذه الحالة مثوبة تتمثل فى الصحة والسعادة والسلامـة .

٢- الجزاء القانوني : والمراد بالقانون هنا القانون الوضعي أو التشريعات الوضعية التي تسنها الجماعات لردع من يقومون بالاعتداء على حقوق الأفراد والجماعات وذلك كالسجن والتغريم لمن يسرق ، والإعدام لمن يقتل بشروط معينة وضعها القانون .

٣- الجزاء الاجتماعي : هذا الجزاء يتعلق بالأعراف والتقاليد التي تحكم الجماعة وتوجه الرأي العام ، فالجماعة تقدر الشخص الفاضل الكريم الذي يتصف بالشجاعة والتضحية والإيثار ، فتمنحه الاحترام والإكبار والإجلال ، على حين أنها تحتقر وتذم الشخص الذي يتصف بالجبن والكذب والبخل .. الخ .

٤- الجزاء الخلقي : يتعلق هذا الجزاء باتباع أوامر الضمير أو الخروج عنها ، وهو ما يسمى بالجزاء الداخلي ويتمثل في الشعور بالراحة والرضا والطمأنينة نتيجة القيام بفعل ما يأمر به الضمير وفي المقابل الشعور بالندم والتأنيب والعذاب إذا خالف أوامر الضمير .

٥- الجزاء الأخروي : وهو ما أعده الله تعالى في الآخرة للمحسنين من نعيم نتيجة الخضوع لأوامر الله وتنفيذها ، والعقاب والعذاب الأليم للعاصين .

مما سبق نرى أن جميع أنواع الجزاء ماعدا الجزاء الخلقى إنما تصدر من سلطة خارجية ، أما الجزاء الخلقى فإنه يصدر من داخل الإنسان لأن الجزاء الخلقى يصدر عن الضمير كرد فعل لما يأتى به الإنسان من أفعال فإذا فعل الخير أحس براحة الضمير ، وإذا فعل الشر أحس بعذاب الضمير وتأنيبه .

من هنا نستطيع أن نعرف الجزاء الخلقى بأنه " جملة ما يلاقيه الإنسان من ثواب أو عقاب صادرين عن ذاته نتيجة إطاعة ضميره أو مخالفته " .

الضمـــــــير

لم يحظ أيّ موضوع بمزيد من البحث كما حظي الضمير ، فقد كان للضمير اهتمام لدى علماء الأخلاق في كل العصور والأزمان ، ولم يقتصر الاهتمام به على علماء الأخلاق ، بل تعداهم إلى علماء النفس والفلاسفة وكذلك رجال القانون .

ولفظ الضمير في اللغة يعني السر وإضمار الشخص في نفسه أمرا ، وجمعه ضمائر ، أما في الاصطلاح فقد عرف بعدة تعريفات منها أنه " ملكة التمييز بين الخير والشر " ومنها أنه " معرفة الخير والشر " وقيل إنه " ملكة الإقرار والاستهجان " وهذه التعريفات جميعها ليست عربية إذ العرب قد استعملوا لفظ القلب أو الباطن أو السريرة بدل الضمير ، ويرى البعض أن اصطلاح الضمير بمعناه الراهن هو وليد القرن التاسع عشر ، وأن العرب قد استعملوا عوضا عنه كلمة " زاجر " التي تؤدي معنى الضمير بعض الأداء فقالوا : " من لم يكن له من نفسه زاجر لاتنفعه الزواجر " والحقيقة التي لايثار حولها أدنى شك أن البحث في الضمير تكتنفه صعوبات تكمن في أنه أمر غيبي فالبحث فيه يقوم على الحدس حينا وعلى النظر المجرد حينا آخر ومن ثم لم يكن الغموض قاصرا على تعريفه بل تجاوزه إلى البحث في كنهه وطبيعته .

طبيعة الضمير وحقيقته :

للمفكرين في حقيقة الضمير وطبيعته آراء اذ منهم من يتناوله من الناحية الخلقية أو التكوينية بمعنى أن يبحث عما إذا كان فطريا أو أنه يتكون بمرور الزمن وتكرار التجارب وتعاقب المواقف ، فإذا ما سلمنا أنه فطرى فإن المواقف والمؤثرات التي يمر بها الإنسان خلال مسيرة حياته لايكون لها أى دخل في تكوينه ، حتى هؤلاء الذين يقولون بتكون الضمير نرى منهم من يقول إن تكوينه راجع إلى قوانين بيولوجية أو نفسية وهذا ما يراه علماء النفس .

ويرى أصحاب مدرسة التحليل النفسي أن الضمير هو حصيلة أو ثمرة الضغوط الأبوية على الطفل وهي ضغوط تتألف من أوامر ونواه وتحريمات يتكون منها ما يسمونه الأنا الأعلى الذى يسبق تكوين الضمير الأخلاقي .

أما علماء الاجتماع فيرون أن الضمير حصيلة أو ثمرة آلاف الضغوط الاجتماعية على الفرد من المنزل والمدرسة والعرف والتقاليد الاجتماعية وسلطان الحضارة والثقافة .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الضمير الفردى ماهو إلا انعكاس للضمير الجماعي الذى ولد الفرد فيه نشأ وتكون .. وماذلك إلا لأن

المجتمع فى رأيهم حقيقة فوق الأفراد التى يتألف منها وليس هو حاصل جمع لهؤلاء الأفراد لأن له ذاتية خاصة تعلو على حاصل جمع الأفراد .

وقد عورض رأى علماء الاجتماع هذا من قبل بعض علماء الأخلاق قائليـن : إن الحياة الاجتماعية لاتخلق الضمائر بل تكيّفها وتشكلها .

هذا وبعد سرد هذه الآراء نستطيع أن نقـرر حقيقة لايختلف حولها اثنان وهى أن الضمير هو نافـذة النفس الإنسانية على العالم وأن القول بأنه صورة من العقل فيه مبالغة ، ذلك لأن العقل أحكامه لاتتغير ومنطقـه ثابت أما الضمير فقد يتبدل بين لحظة وأخـــرى ، كما أن الضمير ليس إدراكا فحسب ، بل هو شعور ، بل جانب الشعور فيه هو الغالب ، فمن يرتكب جريمة خلقية كالزنا أو شرب الخمر لا شـك أن عقلـه يدرك خطأ ما فعله إلا أن ضعف صوت ضميره هو الـــذى دفعه إلى مقارفة الآثـام ، فإذا ما استيقظ الضمير ندم وشعر بالأسى والحـزن ، أما تكوين الضمير فلا أحد يستطيـع أن ينكر أثر العوامـل الخارجية فيه وفى مقدمتها تأثير البيئـة .

ومما يجب لفت الأنظار إليه أنه ليست كل بيئة بمؤثرة ، إنمـا البيئة المؤثرة هى البيئة التى يعجب بها الإنسان ويتقبّل توجيههـم ومن ثَمَّ يُفْهم السّرّ فى أن ابن المجرم قد يكون متدينا إذا أبغض سلوك

أبيه واحتفظ لنفسه بمسلك آخر يخالف مسلك أبيه .

وقد اهتم الإسلام بتكوين الضمير وأبان أهميته ومدى إصلاحه للشخصية كلها ، وما أروع أن نستدل على ذلك بقول الرسول عليه الصلاة والسلام : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " وقد سبق أن قلنا إن العرب يرون أن المقصود بالقلب هو الضمير ، كما يقول صلى الله عليه وسلم : " البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب . والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع الناس عليه " فهذا الحديث يدل على أن في النفس الإنسانية حسًّا خلقيا بالإثم ولذلك يكره فاعل الإثم أن يطلع عليه الناس .

ولعل خير ما نختم به كلامنا عن الضمير هو الحديث النبوى الشريف الذى يشير صراحة إلى الحس والضمير الأخلاقى وهو قول الرسول عليه الصلاة والسلام " ضرب الله فيك صراطا مستقيما ، وعلى جنبى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة وعند رأس الصراط داعٍ يقول : استقيموا على الصراط ولا تعوجّوا ، وفوق ذلك داعٍ يدعو كلما همّ عبد أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه " ثم فسره فأخبر

أن الصراط هو الإسلام وأن الابواب المفتحة محارم اللـــــه وأن الستور المرخاة حدود الله وأن الداعي على رأس الصراط هـــو القرآن ، وأن الداعي من فوقه واعظ الله فى قلب مؤمن ، فهـــذا الواعظ الذى فى قلب كل مؤمن هو الحس الأخلاقى المسمـــــى بالضمـــير .

القانـون الأخـلاقـي

لعل من المناسب قبل أن نتعرض لتعريف القانون الأخلاقـي وما يتعلق به من شروط يجب توافرها فيه أن نتناول بشئ من الإيجاز تعريف القانون وأنواعـه :

تعريف القانون :

القانون لفظ يوناني معرّب معناه في الأصل المقياس المادي، ثم أطلق بعد ذلك على كل مقياس فكرى أو معنوى ، فقيل القانـون مقياس كل شئ وطريقه ،وقيل : القانون " أمر كلى ينطبق على جميـع جزئياته التى تتعرف أحكامها منه " وهو بهـذا المعنـى مـراد ف للمعـيار والقاعـدة.

والقانون عند " كانت" مجموع المبادئ القبلية التى تتخـذ أساسا للمعرفة ، وعند " استيوارت ميل" مبدأ طرق الاستقراء، وهى طريقة الاتفاق وطريقة الاختلاف وطريقة التغيرات المتلازمة ، وطريقة البواقى والقانون الكنسى مجموع قرارات المجامع المقدسة المتعلقة بالعقيـدة والعبادة .

ـ القانون : النظام والشريعة والأصل والناموس وله فى اصطلاح الحكماء عدة معـان :

١ـ القانون مجموع القواعد العامة المفروضة على الإنسان من خـــارج شئون حياته .

فإذا كانت هذه القواعد واجبة عليه دون تشريح صريح سميت عرفا ، أو عادة ، أو تقليدا .

ـ وإذا كانت مفروضة عليه بتشريح صريح تضعه السلطات الاجتماعيـة لوجه المصلحة العامة سميت بالقوانين الوضعية ، فهي بمعنـــى ما مقابلة القوانين الأخلاقية الطبيعية المكتوبة على صفحات القلب وإذا كانت معبرة عن إرادة الله وحكمته سميت بالقوانين الإلهيـة أو القوانين السماوية وهى التشريعات . ولابد فى هذه القوانين من أن تكون الزامية سواء أصدرت عن إرادة أم فرضت عليه من فوق .

٢ـ ويطلق القانون بوجه خاص على القاعدة الالزامية التى تعبر عـــن طبيعة الموجود المثالية ، أو عن طبيعة احدى الوظائف فـــإن هذه القاعدة هى المعيار الذى يجب على الموجود أو الوظيفـة التزامه لتحقيق وجودهما والقوانين التى يتجلى فيها هــــذا التعبير المثالى هى :

أـ قوانين العقل وهى الأوليات والمبادئ الأساسية التى يتقيـد بها العقل فى التفكير المنطقى كمبدأ الهوية ، ومبدأ التناقـض ومبدأ الثالث المرفوع .

ب ـ قوانين الأخلاق وهي قوانين وجدانية مبنية على فكرة الخـير وهي نور طبيعي أفاضه الله على ضمائرنا لمعرفة ما يجب عليـه فعله أو اجتنابه في سبيل تحقيق طبيعتنا المثالية ، ومن شـرط مبادئ هذه القوانين عند " كانت " أن تكون كلية وإلزامية ، وأن يؤدي العمل بها إلى تحقيق الاستقلال الذاتي . قال " كانت " إن المبادئ الأخلاقية تتضمن تحديدا عاما لأفعال الإرادة ، فإذا نظرت إليها من جهة صدقها على إرادة كل إنسان كانـت كلية وموضـوعية ...

وجملة القول أن القانون تعبير عام عن إلزام " كما في القوانين الأخـلاقية أو المدنية " أو عن ضـرورة " كما في القوانين الطبيعية أو الرياضـية " (١) .

---

(١) انظر : المعجم الفلسفي ٢/١٧٩ ومابعدها .

القانون الخلقـــى :

يعرف بأنه " الميزان الذى يزن به الإنسان ما يصدر عنه من أعمال حتى تكون خيرة وفاضلة " .

شروط القانون الخلقى :

للقانون الخلقى شروط يجب توافرها فيه حتى يكون ميزانـــــا جديرا بالاعتبار من أهم هذه الشروط ما يأتى :

١ـ العمومية : وهذه ميزة القوانين كلها من أى نوع كانت ،فالقانون إذا لم يكن عاما فقد صفته كقانون وأصبح رأيا شخصيا خاصا بفرد أو أفراد لايلتزم به الآخـــرون .

٢ـ الدوام والاستمرار : لكى يكون القانون سليما وقويما وصالحا يجب أن يتصف بصفة الدوام والاستمرار ، وإلا أصبح قانونا وقتيا تحت خطر التغيير والتبديل وأصبح عرضة للخروج عنه بين حين وآخر .

٣ـ الإلزام : هو من أهم الصفات الجوهرية التى يجب توافرها للقانون الخلقى وإلا فقد صلاحيته .

منابع القانون الخلقى :

للقانون الخلقى منابع كثيرة وعديدة إلا أنها لابد أن ينظـــر

إليها على أساس الشروط السابقة التى تقدمت والتى لابد من توافرها فيها ، فما توافرت فيه هذه الشروط عمل بمقتضاه وإلا فلا ، فمثلا هذه القوانين التى وضعها فلاسفة المنفعة بنوعيها الشخصية والعامة ، فإنها بطبيعتها غير صالحة على الإطلاق لأنها لاتتسم بالعموم ، إذ إن منفعتى غير منفعة غيرى وهكذا تتعارض المنافع والمصالح ، أيضا قوانين الأخلاق التى وضعها فلاسفة الواجبية والتى فتن بها كثير من الناس نجدها عند النظرة الفاحصة لاتصح إطلاقا ، ذلك لأنها لاتتسم بسمة العمومية لأن ما أراه أنا واجب الفعل قد يراه الغير واجب الترك وهكذا ، فهى لاتتسم بسمة الإلزام ، وإنما ترك الأمر فيها إلى اختيار الأشخاص وهذا مجال واسع للضمائر المريضة تفعل ماتشاء بحجة أنها فعلت ما رأته واجبا فى رأيها .

المنبع الصحيح للقانون الخلقى :

إن المنبع الصحيح للقانون الخلقى هو كتاب الله – تبارك وتعالى – إذ هو القانون الشامل العام ، لأنه كتاب شامل وعام محكم الآيات لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، يبين ثواب الطائعين كما يبين عقاب العاصين لايفرق بين فرد وآخر ، ولا بين فئة وأخرى " إن أكرمكم عند الله أتقاكم "

كما تعتبر السنة النبوية المطهرة المنبع الثانى للقانون الخلقى بعـد كتاب الله تعالى ولا عجب فقد مـدح الله تعالى نبيه بقوله : " وإنك لعلى خلق عظيم " وصدق الله العظيم إذ يقول " لقد كان لكم فـى رسول الله أسوة حسنة " .

الأخلاق في الديانة اليهودية

لقد ترتب على ظهور الديانة اليهودية عدم مسئولية الإنسان عن البحث في القواعد الأخلاقية ومحاولة وضعها وصياغتها ، إذ تولت أحكام شريعة موسى - عليه السلام - هذه المهمة ، بيد أن هذا التحول عن العقائد الوثنية والقواعد الأخلاقية اليونانية اللاتينية لم يتم بسهولة ويسر وفي وقت وجيز فلقد كان من العسير وانتقال الناس من معتقداتهم الوثنية ، هذا من ناحية ، كما أنه من المتعذر إقناعهم بقبول شريعة السماء من ناحية أخرى .

ولم يكن هذا في مجال الأخلاق فقط ، بل في كل جوانب الحياة الإنسانية ، لذلك ظل للفكر اليوناني اللاتيني تأثيره وامتزج بالدين اليهودي الجديد ، فظهرت العقائد الدينية والنظم الفلسفية التي تمثلت في يهودية " فيلون " وأكثر ما ظهر هذا الامتزاج في الإسكندرية حيث امتزجت آراء روما واليونان والشام في المدينة والعلوم والدين ، واتصل بالفلسفة اتصالا وثيقا كان من نتائجه ظهور عقائد لا هي من الفلسفة المحضة ولا هي من الدين الخالص ، وكان السبب في ذلك عاملين هما :

١- ميل اليهود إلى التوفيق بين معتقداتهم الدينية والعلم الغربي الذي كان متأثرا بالعلم اليوناني .

٢- أن المفكرين الذين استمدوا آراءهم من الفلسفة اليونانية رأوا أن يوفقوا بين معتقداتهم الفلسفية وبين القضايا المحضة.(١)

إلا أن ما يهمنا هنا هو الجانب الأخلاقي حيث نجد فيه اتجاهات وآراء جديدة جدت في التوراة وتضمنتها ثلاثة أسفار منها: الخروج والأحبار والتثنية. وأول ما يلاحظ عليها هو تعارضها مع الكثير من الفلسفة اليونانية الأخلاقية خاصة لدى الرواقيين والأبيقوريين ويمكن أن نلاحظ ذلك على الخصوص فيما يتعلق بالأخلاق التي وردت في الوصايا العشر:

١- لا يكن لك آلهة أخرى أمامي.

٢- أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك.

٣- لا تقتل.

٤- لا تزن.

٥- لا تسرق

٦- لا تشهد على قريبك شهادة زور.

٧- لا تشته امرأة قريبك ولا غيره ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك.

---

(١) انظر: مبادئ الفلسفة ص ١١٧.

٨ ـ من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا .

٩ ـ من سرق إنسانا وباعه أو وجد في يده يقتل قتلا .

١٠ ـ من شتم أباه وأمه يقتل قتلا .

فإنه من خلال النظر في هذه الأحكام القوية لا نجد روح المسالمة والسعي إلى السكينة اللتين سادتا العديد من المبادئ الخلقية في الفلسفة اليونانية خاصة لدى سقراط والرواقيين ، كما عرفت الإنسانية معنى الحرمة وانتهى عهد الإباحية وانطلاق الغرائز والشهوات وطلب اللذات بغير ضوابط أو قيود ، وظهرت فكرة الخطيئة التي تدنس المخطئ ويمكن التكفير عنها بالهبات والقرابين .

ومما يلاحظ أيضا أن اليهودية لم تقض على نظام الرق ، بل ظل قائما في ظلها حيث أباحت التوراة الاسترقاق بطريقين : طريق الشراء أو السبي في الحرب ، وجعلت للعبري الحق في أن يستعبد العبري إذا افتقر فيبيع الفقير نفسه للغني ، كما أباحت أن يقدم المدين نفسه للدائن حتى يوفي له الثمن ويظل عبدا لديه لمدة ست سنوات يتحرر بعدها في العام السابع ، وأباحت التوراة للعبري أن يبيع بنته فتكون أمة للعبري الذي يشتريها (١) .

---

(١) انظر : د / أحمد شلبي : مقارنة الأديان " اليهودية " ص ٢٩٦

كما أننا نلمس أيضا العزوف عن نصائح الزهد التي شاعت في ثنايا الفلسفة الأخلاقية اليونانية فيما جاءت به الديانة اليهودية مثل : ثروة الغني مدينته الحصينة .

- الغني يكثر الأصحاب والفقير ينفصل عن قريبه ، على أن النظرة للمرأة تبدو قاسية بالنسبة لذات الخلق السيء .
- السكن في أرض برية خير من امرأة مخاصمة حردة .
- المتراخي في عمله هو أخو المسرف .

فالشريعة اليهودية لم تقتصر على ترك الزهد والتسامح فحسب ، بل إنها أخذت بمبدأ العدل الثأري المتشدد ، فالعين بالعين والسن بالسن ، وإذا كانت قد دعت إلى حب الأصدقاء فقد دعت إلى بغض الأعداء (١) .

ومما يسترعي الانتباه هو النص على أن العمل السيء لا يقتصر أثره والجزاء عليه على فاعله فقط بل يتعداه إلى ذريته كذلك ، ففي نصوص التوراة : حرمت عليكم الأصنام والتماثيل وتصوير ما في السماء أو في الأرض أو في قاع البحر ، لا تعبدوا شيئا منها ولا تقيموا الشعائر لها لأني الرب إلهكم الإله القوي الغيور الذي يتأثر من الآباء العصاة ويأخذ بجريرتهم أبناءهم وأحفادهم إلى الجيل الثالث والرابع حيث

---

(١) انظر : أندريه كريسون : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص١٢٧

إنهم أبغضوه بالمعصية ، ويمنح الغفران لمن أحبوه وحافظوا على فروضه وبسببهم يمنح هذا الغفران لأبنائهم وأحفادهم بل إلى ألف جيل من ذريتهم .

ويمكننا الآن أن نجمل النظرية الأخلاقية اليهودية فيما يلي :

١ـ أن الأخلاق أصبحت ذات مصدر سماوي وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يقرر ما هو خير وما هو شر ، وبذلك أفسحت أفكار النظريات الأخلاقية الوضعية المجال للمبادئ الدينية لتحل محلها .

٢ـ أنه أصبح أمام البشر نظامان أخلاقيان هما : النظام اليهودي السماوي والنظام الإغريقي اللاتيني الوضعي وقد نشب بينهما خلاف في أول الأمر ثم قام رجال الدين والمفكرون بالمزج بينهما بعد ذلك .

٣ـ اتسمت المبادئ الأخلاقية اليهودية بالعدل الثأري وتأكيد شخصية الفرد والمحافظة على حقوقه .

٤ـ التباين الواضح بين القواعد الأخلاقية اليهودية وبين النظريات الأخلاقية اليونانية سواء فيما يتعلق بنظرية القيم الخلقية أو بالأهداف والوسائل التي تؤدي إليها أو بأساليب السلوك عامة .

هذا ولا يفوتني في هذا المقام أن أشير إلى أن هناك عشر وصايا

أشار إليها القرآن الكريم فى آخر سورة الأنعام حيث يقول الحق جل وعلا : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولوكان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) (١) .

---

(١) سورة الأنعام الآيتان (١٥١، ١٥٢) .

الأخلاق فى الديانة المسيحية

لقد مهدت الديانة اليهودية السبيل إلى ظهور الأخلاق التى بعثها الوحى السماوى ، ثم جاءت بعدها الديانة المسيحية بقواعد أخلاقية مختلفة عن الديانة اليهودية ، وتنسم هذه القواعد بأمرين هما :

١- ما يتعلق بالقيم . ٢- ما يتعلق بالسلوك .

وفيما يلى سوف نتناول كلا من الأمرين على حدة :

١- مايتعلق بالقيم :

لقد وجد الإنسان لأول مرة قيما جديدة لا عهد له بها لا فى الفلسفة اليونانية ولا فى شريعة اليهود ، كفكرة سعادة الإنسان إلا أن هذه السعادة ليست فى هذا العالم الدنيوى وإنما تكمن فى عالم آخر هو العالم الأخروى إذ الأرض ماهى إلا منفى ، أما مملكة الله فليست فى عالمنا الأرضى بل هى فى عالم آخر ، فالمسيحية جعلت كل قيم الحياة الدنيا لاتساوى شيئا بجانب القيم الخالدة فى الحياة الأخروية ، لذلك ينبغى أن يستحوذ هذا العالم الأخروى على كل رغبات الإنسان وسلوكه وأعماله ، فقد ورد فى بعض أناجيلها :

١ـ لاتكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسدها السوس والصدأ ، وينقب عنها اللصوص ويسرقون ،بل اكنزوا لكم كنوزا في السماء حيث لايفسدها سوس ولا ينقب عنها لصوص ولايسرقون • إنجيل متى ٦ : ١٩

٢ـ ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان • إنجيل متى ٤ : ٤

٣ـ ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ متى ١٦ : ٢٦

٤ـ لايقدر أحد أن يحترم سيدين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر ،لاتقدروا أن تخدموا الله والمال •

٥ـ لاتهتموا لمعيشتكم بشأن ما تأكلون وماتشربون ،ولا أجسادكم بشأن ماتكتسون أليست الحياة أكثر من مجرد طعام والجسد أكثر من مجرد كساء • إنجيل متى ٦ : ٢٥

وهكذا نرى المسيحية تدعو إلى ترك متع الدنيا والزهد في نعيمها وعدم التعلق بالمال ،والمسيح ـ عليه السلام ـ ينصح أتباعه قائلا : اترك مالك واتبعني •

كذلك المحبة قيمة حرصت عليها المسيحية ،ففي الإنجيل وصية جديدة أنا أعطيكم أحبوا بعضكم بعضا • إنجيل يوحنا ١٣ : ٣٤

٢- مايتعلق بالسلوك :

لقد دعا المسيح -عليه السلام- إلى تغيير شامل في النفس الإنسانية من شأنه أن يؤثر على السلوك الفردي والاجتماعي لأتباعه ويتضح ذلك من النصائح الواردة في إنجيل متى والتي منها :

١- طوبى للمساكين بالروح ،فإن لهم ملكوت السموات. إنجيل متى ٥ : ٣

٢- طوبى للحزانى ،فإنهم سَيُعَزَّوْنَ . إنجيل متى ٥ : ٤

٣- طوبى للودعاء ،فإنهم سيرثون الأرض . إنجيل متى ٥ : ٥

٤- طوبى للجياع والعطاشى إلى البر فإنهم سيشبعون ،انجيل متى ٥ : ٦

٥- طوبى للرحماء ،فإنهم سيرحمون . إنجيل متى ٥ : ٧

٦- طوبى لأنقياء القلب فإنهم سيرون الله . إنجيل متى ٥ : ٨

هذا ولعل الفرق الجوهري بين المسيحية واليهودية يظهر بجلاء ووضوح من خلال مسألة الجزاء فإذا كانت اليهودية قد أخذت بقاعدة الجزاء والقصاص بالمثل إذ العين بالعين والسن بالسن ،فإن المسيحية قد دعت إلى مقابلة الشر بالخير والرد على السوء بالحسنى فقد ورد في تعاليمهم ما يلي :

١- أحبوا أعداءكم ،وباركوا لاعنيكم ،وأحسنوا معاملة الذين يبغضونكم وَصَلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويضطهدونكم .

٢- لاتقاوموا الشر بمثله ،بل من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ،ومن أراد محاكمتك ليأخذ ثوبك فاترك له رداءك أيضا ، ومن سخرك لأن تسير ميلا فسر معه ميلين ،ومن طلب منك شيئا فأعطه ،ومن جاء يقترض منك فلا ترده خائبا .

٣- إن جاع عدوك فأطعمه ،وإن عطش فاسقه ،فإنك بعملك هذا تجمع على رأسه جمرا مشتعلا ،لاتدع الشر يغلبك بل اغلب الشر بالخير .

مما سبق نجد أن فى المسيحية من تعاليم الزهد ورياضة النفس مايذكرنا بمبادئ الفلسفة اليونانية واللاتينية فى مجال الأخلاق خاصة آراء سقراط وأفلاطون والرواقيين وشيشرون . ولقد ظهر أثر هذا فيما بعد ، عندما امتزجت هذه الفلسفة الأخلاقية بالديانة المسيحية منذ القرن الأول الميلادى ووجد له تبرير مؤداه أن الإيمان يحتاج إلى الفهم وإلى الأدلة العقلية ، كما أن الإيمان لايناقض العقل . وفى القرون الخمسة الأولى للمسيحية ظهرت الثمار بوضوح فى الإنتاج اليونانى للقديس " كليمان " الإسكندرى و" أوريجين " و"اثناز " والقديس "جريجوار دى نازينز " والقديس" جريجوار دى نيس" والإنتاج اللاتينى " لجوستين " و" ترتولين " والقديس" امبرواز" والقديس " أوغسطين" وغيرهم .

ومنذ القرن الثالث عشر أى بعد مرور فترة الركود العقلى الذى

ساد فى القرون الوسطى أخذ الغربيون فى الاطلاع على الشروح العربية لفلسفة أرسطو وعلى الخصوص شروح ابن رشد وأثمرت هذه الفترة مدارس " ألبير " الكبير ، والقديس " توماس الإكوينى " ودن سكوت وأخيرا مدرسة " جيوم د وكام " وقد أخذت هذه المدارس من أفلاطون والرواقيين والأفلاطونية الحديثة واكتملت بفلسفة أرسطو ، وقد قام القديس " توماس الإكوينى " بمجهود كبير تمكن من خلاله أن يصهر هذه المذاهب كلها والفلسفات الأخلاقية مع المبادئ المسيحية وأن يوفق بينها وأن يكوّن منها مذهبا واحدا يرجع الفضل فى توضيح أصالته إلى المؤرخ المعاصر الأستاذ " جيلسن " (١) .

الجانب التطبيقى فى الأخلاق المسيحية :

بالنظر إلى ما قررته المسيحية من مبادئ وإلى واقعها العملى نلاحظ أنها مبادئ نظرية لاتمت إلى الواقع العملى بصلة ، وهناك فرق كبير بين النظرية والتطبيق وبين المبادئ والواقع لا فى عصرنا الحاضر فحسب ، بل وعبر عصور التاريخ .

فإذا ما رجعنا إلى تاريخ الشعوب المسيحية فإن أول مايطالعنا

---

(١) انظر : أندريه كريسون : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص ٤١ وما بعدها .

هو الحروب الصليبية التي شنوها على المسلمين في الشرق وما جرى فيها من مذابح خاصة في القدس وفي معرة النعمان حيث كانت خيولهم تسبح في بحار من الدماء بشوارع القدس ليس هذا فقط بل كانوا يقومون بذبح النساء والأطفال والشيوخ ، وكما تنقل إلينا أيضا كتب التاريخ أن عدد الضحايا قد زاد عن مائتي ألف مسلم شهيد وليست مذابح المسلمين في الأندلس على يد المسيحيين بعد انتصارهم فيها وما فعله أيضا الاستعمار المسيحي بشعوب البلاد الإسلامية من أندونسيا وشرق آسيا شرقا إلى الجزائر والمغرب غربا يخاف على أحد ، وفي أوربا قامت جمعيات ثورية غايتها القضاء على أعداء المسيحية ووسيلتها في ذلك الدماء والمقاصل من أشهرها جمعية الصليب المقدس في تورينو بإيطاليا .

وإن ننسى لا ننسى ما ارتكبه المسيحيون الكاثوليك ضد المسيحيين البروتستانت وخاصة مذبحة باريس في ١٥٧٢/٨/٢٤ التي دبروها لهم .

وما نراه الآن في الغرب المسيحي ، وما هو قائم الآن في أمريكا بالنسبة للزنوج والسود والملونين والهنود الحمر من مبادئ المسيحية يجعلنا نتساءل أين هذا من مبادئهم ونظرياتهم التي ينادون بها ويتواصون بالتعامل بمقتضاها ؟؟؟!!!

أين هم من قول المسيح - عليه السلام - " أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم وَصَلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم " لقد أصبحت هذه النصائح وغيرها مجرد كلمات يرددها القساوسة في الكنائس دون أن يكون لها صدًى في الواقع العملي .
ثم أين هم من قول المسيح " من نظر إلى امرأة وهو يشتهيها فقد زنا بها " مما هو مشاهد الآن في الحياة الأوربية المسيحية من الفجور وانطلاق الشهوات؟ وتَرْكُ المسيحيين الغربيين لمبادئ المسيحية وقواعدها وأخلاقياتها إن دل على شئ فإنما يدل على أنهم آثروا الحياة الدنيا ونعيمها على الآخرة وعلى أن تعاليم المسيحية لم تعد تلبي حاجاتهم الحاضرة ومعيشتهم المعاصرة لذلك انصرفوا عنها .

على أنه مما يسترعي الانتباه أنه في مقابل هذا الخروج على تعاليم المسيحية والعمل بما يناقضها نجد - ومنذ زمن بعيد - اتجاها آخر مخالفا لهذا الاتجاه متطرفا في تطبيق تلك التعاليم متشددا فيها ونعني به الاتجاه نحو الرهبنة وإيثار حياة الأديرة .

تقييم الأخلاق في المسيحية :

نلاحظ على نظرية الأخلاق في المسيحية مايلي :

١ - أن الفكرة الأولى فيها تقوم على إنكار حقوق الفرد في الحياة

الطبيعية دون تلبية حاجاته الضرورية ونزعاتـه النفسية الفطرية كما أن فلسفة الأخلاق فى المسيحية تقوم على قاعدة الكبت كبت الرغبة فى الانتقام من المعتدى (من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيســر) وكبت مشاعر الإنسان الطبيعية فى أن يبغض الإنسان من يبغضـــه ولاشك أنه من العسير على الإنسان أن يتحكم فى مشاعره الطبيعيـــة ونزعـاته النفسية إذ هذا تكليف بما لايطاق .

٢- لم تستطع المسيحية أن تحافظ على نقاء المصادر الأخلاقية فيهـا طويلا إذ ما لبثت أن دخلتها أفكار وضعية عديدة لبعض الفلاسفة والمفكرين كما أشرنا من قـبل .

٣- تركز المسيحية اهتمامها بالأخلاق الفردية دون نظر إلى الأخلاق الاجتماعية ومايترتب عليها من مردودات إيجابية تنهض بالمجتمـع ويؤكد هذا الاتجـاه أن المسيح - عليه السلام - قد أكـــد أن المسيحية لاشأن لها بإصلاح المجتمعات ، ولا بمسائل الحكـم : " دع ما لقيصر لقيصر وما لله للـه " ومن ثم كان جانب الأخــلاق الاجتماعية خافتا ضعيفا فى التعاليم المسيحية .

٤- لقدكان للاتجاه الفردى فى الأخلاق عند المسيحية وترك إصــلاح الجماعة ، كما كان لعسر المنهج الأخلاقى المسيحى وتشدده ،

أثر كبير وملموس في انقسام المجتمع المسيحي إلى قسمين متناقضين تماما : القسم الأول الأقلية المتشددة من الرهبان ورجال الكنيسة والقسم الثاني يمثل أغلبية المجتمع ممن لم يستطيعوا الانصياع لأخلاقيات المسيحية وتعاليم الكنيسة فعاشوا على أسس جديدة من التشريعات والأخلاق الوضعية التي وضعها بعض الفلاسفة والمفكرين كما أسلفنا .

سمات النظرية الأخلاقية فى الإسلام

للنظرية الأخلاقية فى الإسلام سمات وخصائص تميزها عما سواها من سائر النظريات الأخلاقية بغض النظر عن كونها سماوية أو وضعية وفيما يلى سوف نتناول بعض هذه السمات :

أولا : القيمة الذاتية :

للأخلاق فى الإسلام قيمة ذاتية لاحتوائها على غايات مقصودة لذاتها فهى ليست وسائل لتحقيق غايات ، وهى بذلك لاترتبط بقواعد المنفعة أو مذاهب اللذة ،فمثلا قضية الحجاب مسألة أخلاقية وقاعدة شرعية فى الإسلام لايمكن إهمالها بحال من الأحوال أو لسبب من الأسباب كسبب العمل والتكسب أو الرغبة فى مجاراة الأعراف والعادات والتقاليد ونظرة واحدة إلى مشاكل بعض الشعوب الإسلامية تجعلنا نؤمن أن السبب فيها هو تخليها عن قواعد الأخلاق رغبة فى تحقيق منافع مادية أو نهضة حضارية ناسين أو متناسين أن هذه الأخلاق إنما تقصد لذاتها ،ولا يجب بحال من الأحوال أن ترتبط بمنافع مادية أو خلافه ، فالتعليم المختلط فى المرحلتين الإعدادية والثانوية فما فوقهما والذى تعتبره بعض الدول الإسلامية نهضة حضارية قد تأكد لأكثر الشعوب تحررا وهم الأمريكيون أن اختلاط

المراهقين بالمراهقات قد أدى إلى نتائج مخزيــة .

ثانيا : الجــزاء :

لعل من أهم سمات الأخلاق الإسلامية أنها مرتبطة بالجــزاء الأخروى من فوز بالنعيم والنجاة من عذاب الجحيم . ويعتبر الجــزاء ركنا مكملا للأخلاق فى الإسلام حيث يكــون الباعث على التمسك بهــا هو حرص المسلم ورغبته فى إرضاء الله سبحانه وتعالى والفوز بثوابـــه المقيم فى جنات النعيم .ولا شك أن هذا الباعث له أثره العظيـــم والقوى فى تقوية الإيمان والإعانة على تحمل ما يتطلبه السلوك الأخلاقى من مجاهدة للنفس الامارة بالسوء .

ومما تجدر الإشارة إليه أن تمثل الإنسان للجزاء فى كل أفعاله وتصرفاته ليس بالأمــر الهين اليسير لكل فرد لأن هذا يعتبر بمثابــة ثمرة لتربية خلقية ولقدوة حسنة تحيط بالإنسان منذ نعومة أظفـــاره وترافقه خلال سنى حياته ومراحل عمره . وقد يقول قائل : إن سمة الجزاء لاتختص بالأخلاق الإسلامية وحدها . بل هى متحققة فى التشريعـــات الوضعية إذ إنها تضع جزاءات للمخالفة .. ونحن نقول :إنه شتــان بين الجزاءين .وفارق كبير بين النظامين فالقوانين الوضعية لاتتنــاول من النواحى الخلقية إلا مسائل متناثـرة ينقصها الاحاطــة والشمــول

بكل مناحي الحياة الإنسانية فهي لاتعني إلا بما يراه الناس ضروريا ولاتهتم إلا بما يشكون منه فما يراه الناس موافقا لأهوائهم قلما تتدخل الحكومات للحدّ منه أو العقاب عليه ، فحكومات العالم مثلا تؤمن بأن العُرْى جريمة خلقية وأن جميع الديانات لاتحله ،ومع ذلك لانجد تشريعا يحرم العُرْى وكشف مايحرم كشفه في أغلب دول العالم شرقا وغربا .

كما أن الجزاء في التشريعات الوضعيه يتطلب مشقات ونفقات مالية كبيرة كرجال للتحقيق وقضاة وسجون وجنود وغير ذلك ، بينما يقوم الضمير في الأخلاق الإسلامية بما تعجز عنه القوانين والجنود ، إذ رقابة الإنسان لنفسه أهم وأجدى من أىّ رقابة خارجية عليه .

وهكذا نرى أن الفرق كبير والبون شاسع بين الجزاء في الأخلاق الإسلامية وغيره في القوانين الوضعية .

ثالثا : الاعتدال :

من أهم سمات الأخلاق الإسلامية الاعتدال حيث لا إفراط ولا تفريط ، إذ لا مجال لتشدّد يجعل قواعد الأخلاق لاتطاق ،كما أنه لا مجال لتفريط حيث لاعبث ولا تسيب ، وصدق الله العظيم إذ

يقول (أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون) فالوسطية من أهم سمات القواعد والأحكام الإسلامية . فالمسلم أو المسلمة لايتشددان كما أنهما لايعبثان بل يتسمان بالشخصية الوسط . فهكذا كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- يمزح ولايقول إلا صدقا . وكان يلاعب حفيديه الحسن والحسين - رضى الله عنهما - كما كان يسابق السيدة عائشة - رضى الله عنها - وكانت تسبقه مرة وسبقها أخرى ثم يقول هذه بتلك .

رابعا : المواءمة :

من خصائص الأخلاق الإسلامية مواءمتها لجميع حالات الأفراد ودرجاتهم ومستوياتهم وظروفهم . فالشخص الضعيف يرى فيها ما يتفق وطبيعته وكذلك الإنسان المتوسط أو القوى . ولنضرب لذلك مثلا بخدمة الجماعة تبدأ بإماطة الأذى عن طريق الناس ثم تتدرج إلى أعلا حتى تصل إلى التصدق بما يملك فى سبيل خير الجماعة ولاشك أن بين هاتين الدرجتين درجات ومنازل متعددة تتفق وحالات الأفراد ومستواهم الخلقى والنفسى . فيأخذ الإنسان من وسائل الخير قدر استطاعته فالله لايكلف نفسا إلا وسعها .

والإسلام لايتطلب أن يكون جميع الناس على مستوى خلقى

واحد لأن الله أعلم بعباده ، واختلافهم فى الإدراكات والعقول والطاقات النفسية والجسمية ، ولعل أكبر دليل على ذلك تشريع الرخصة والعزيمة فى الإسلام .

خامسا : إمكانية التطبيـــق :

لا استحالة فى تطبيق القواعد الأخلاقية فى الإسلام ولا تعجيز ، فالأخلاق الإسلامية يستطيع الفرد العادىّ الأخذ بها والتعامــــل بمقتضاها مع بنى البشر وصدق الله العظيم إذ يقول (ما جعل عليكم فى الدين من حــرج) ، وليس معنى هذا أن تكون القواعد الأخلاقية خالية من أى نوع من أنواع المشــقة أو أن تكون بحيث لاتتطلب جهدا فى التمسك بها ، إذ ليس ذلك هو الواقــع لأن تربية النفوس وتهذيب السلوك ومقاومة الأهواء والرغبات ، كل ذلك يتطلب مجاهدة ومشقــــة إلا أنه يمكن احتمالها ، وليس الضيق أو العنت مقصودين مطلقا عنـــد التمسك بهذه القواعد الأخلاقية ، فالرسول عليه الصــلاة والسلام إنمـا جاء للناس ليضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

وقصارى القول أن القواعد الأخلاقية فى الإسلام واقعية ومناسبة لطاقة البشر وليســت بدرجة من المثاليـــة التى يتطلع إليها الإنسان

ولا يتمكن من تطبيقها وبلوغها ، ولا أدل على ذلك من أن الله -سبحانه وتعالى- قد جعل التقوى بالنسبة للإنسان قدر استطاعته .

وصدق الله العظيم إذ يقول : (فاتقوا الله ما استطعتم) .

نماذج من الأخلاق في الإسلام :

تتضح معالم الأخلاق التي جاء بها الإسلام في ما جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة والكتب التي توافرت على شروحها تتضح معالم الجانب النظري منه في حين أننا نجد الجانب العملي أو التطبيقي منها في أفعال الرسول (صلى الله عليه وسلم) أي في السنة الفعلية ، ونجدها كذلك في أفعال الصحابة والتابعين (رضوان الله عليهم) ، ونجدها أيضا في أفعال المسلمين الملتزمين شرع الله كتاباً وسنة .

وسوف نقتصر في الحديث على بيان أهم الفضائل كالحكمة والصدق والعدل والعفة والصبر والحلم والإيثار ، ثم نذكر بعضا ما اتصف به رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم)

من الشجاعة * والعفو عند المقدرة والسخاء ** والجود *** والحياء **** والتواضع لنرى أن الجانب العلمي فيها - الأخلاق - ملازم للجانب النظري تماما فهي في منهج الإسلام سلوك قبل أن تكون نظرا ، وتطبيق وعمل قبل أن تكون علما .

---

* الشجاعة : شدة القلب عند البأس .
أبو بكر الرازي : مختار الصحاح ص٣٣٠ ، دار الفكر بيروت ، ١٩٨١ م .

** السخاء : إخراج العبد بعض ما يملكه بسهولة .

*** الجود : اخراج العبد أكثر ما يملكه بسهولة .
أما الإيثار فهو إخراج العبد جميع ما يملكه بسهولة مع حاجته إليه . راجع هامش الرسالة القشيرية للشيخ زكريا الأنصاري ص ١٩٢ .
ولقد عرف الجود بأنه : الإعطاء لا لغرض فمن يهب المال لغرض جلب نفع أو دفع مضرة لا يكون جوادا .

**** الحياء : انقباض النفس من شيء وتركه حذرا عن اللوم فيه وهو نوعان : نفساني ، وهو الذي خلقه الله (تعالى) في النفوس كلها ، كالحياء من كشف العورة ، والجماع بين الناس ، وإيماني وهو أن يمنع المؤمن من فعل المعاصي خوفا من الله (تعالى) . الجرجاني : التعريفات ص ٩٤ .

نتبين ذلك عند عرضنا لملامح ما كان عليه صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اقتداء بالوحي الذي أنزل عليه وبأقوا له (صلى الله عليه وسلم) وأفعاله .

أولاً :- الحكمة :

إذا تحدثنا عن الحكمة فسوف نجد أنها أم الفضائل .

والحكمة هي وضع كل شيء في موضعه .

وإذا نظرنا في القرآن الكريم نجد أنه تحدث عن الحكمة حديثا مفصلا لم يترك شيء مما يتصل بهذه الفضيلة .

ولقد وصف القرآن الكريم أن من يتصف بالحكمة فقد حصل على الخير كله .

يقول (سبحانه وتعالى) :

(... ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب) .

سورة البقرة : من الآية ٢٦٩ .

ولقد خص الله (تبارك وتعالى) بهذه الفضيلة بعض الأنبياء من ذلك قوله (تعالى):

(ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه .....) (١) الآية

ويقول (سبحانه وتعالى) في شأن داود (عليه السلام):

(.... وآتاه الله الملك والحكمة ...) (٢)

ويقول (عز وجل)

(وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) (٣)

ومن ينظر في هذه الأيات وغيرها التي تناولت ذكر الحكمة في كتاب الله (تعالى) يلحظ أنها تجعل الحكمة هبة من الله (العلي القدير) وليست باجتهاد من الإنسان فهي إيتاء من الله وهبة وتفضل منه (سبحانه وتعالى).

---

(١) سورة لقمان: من الآية ١٢.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٢٥١

(٣) سورة ص: الآية ٢٠.

لأن الإنسان قد يحصل باجتهاده على فضيلة من الفضائل أو أكثر . أما أن يحصل على جماع الفضائل كلها ، وأن يصل إلى الكمال الإنساني بحصوله على الحكمة فهذا الأمر لا يحصل ولا يتأتى بالاجتهاد وإنما يحصل بتوفيق وعون من الله (تبارك وتعالى) فهو مصدر الحكمة (سبحانه وتعالى) يفيضها على من يشاء من أنبيائه وأوليائه الذين خلقهم الله وجعلهم مثلاً عليا يحتذى بهم وليس معنى ذلك اليأس من الحصول على فضيلة الحكمة لغير الأنبياء والأولياء ، بل ينبغي على الإنسان أن يسعى في الحصول عليها بقدر الإمكان .

هذا ويكفي الحكمة شرفا أن الله (سبحانه وتعالى) سمى بها ذاته المقدسة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم منها قوله (تعالى) (.... إن الله كان عليما حكيما) (١)

(١) سورة النساء : من الآية ١١

وقوله تعالى) :

(.... وهو العليم الحكيم) (١)

وقوله (تعالى) :

(... وهو العزيز الحكيم) (٢)

وإذا كانت الحكمة مما تتناهى إليها الأبصار وتتشوق إليها البصائر فقد كان المثل الأعلى لهذه الفضيلة هو رسولنا الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) حيث إننا نرى أن الله (تبارك وتعالى) فى الآيات السابقة أعطى الحكمة بعض الأنبياء وبعضهم الحكمة وفصل الخطاب فلقد جمع الله فى خاتم أنبيائه ورسله هذه الفضيلة وغيرها .. ولقد كان (صلى الله عليه وسلم) مثال الحكمة والتوفيق والإصابة فى كل ما يفعل أو يترك أو يأخذ أو يدع .

---

(١) سورة التحريم : من الآية ٢

(٢) سورة الحديد : من الآية ١

وكان عليه (الصلاة والسلام) يحبب المسلمين فى الحكمة ويرغبهم فى طلبها من ذلك ما روى عن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: لاحسد إلا فى إثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويُعلمها الناس "(١)

عن أبى هريرة (رضى الله تعالى عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها، فهو أحق بها". (٢)

---

(١) مسند الإمام أحمد: ج ١ص ٣٨٥، ابن حجر العسقلانى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٢٨ ص ٦٤، من غير لفظ (الناس) الذى ورد فى مسند الإمام أحمد.

(٢) سنن ابن ماجه: ج ٢ص ١٣٩٥ كتاب الزهد باب الحكمة حققه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقى، ط دار الفكر وأورده الترمذى فى سننه عن أبى هريرة بلفظ (الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها) م ٤ ص ١٥٥ فى أبواب العلم، ط دار الفكر.

ولقد خاطب الله (تبارك وتعالى) رسوله الكريم (صلى الله تعالى عليه وسلم) : فقال :

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) . (١)

ولقد كان كما وصفه الله (تبارك وتعالى) من اتصافه بالحكمة والصدق والعفة ... الخ

∴ ∴

---

(١) سورة النحل : الآية ١٢٥

ثانيا : الصدق :

الصدق فضيلة من أهم الفضائل التي تقوم عليها المجتمعات ، لأنه حينئذ تعم الثقة والسعادة بين الناس وتتوطد أواصر التقارب والتآلف ، ولا خير في مجتمع يسود فيه الكذب وتفتقد فيه الثقة .

والصدق هو : أن يخبر الإنسان بما يعتقد أنه الحق . (١)

وعرفه علماء التوحيد بأنه : مطابقة الخبر للواقع ولو بحسب اعتقاد المتكلم . (٢)

والإخبار هنا ليس مقصورا على القول فقط ، بل يكون بالفعل كالإشارة باليد ، وهز الرأس ، أو الكتابة ، وقد يكون بالصمت والسكوت دون

---

(١) أحمد أمين كتاب الأخلاق ص١٨٦ ، السيد أبو ضيف المدني : الأخلاق في الأديان السماوية ص٨٠ ، دار الشروق ط أولى ١٩٨٨م .

(٢) راجع : البيجوري : شرح البيجوري على الجوهرة ص١٤٩ ، طبعة القاهرة ١٩٧٢م ، د/عبد السلام محمد عبده : العقيدة الإسلامية في ضوء النقل والعقل والقلب ، ص٢٨٦ ، دار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٧م .

قول أو فعل ، وذلك مثل من ارتكب جريمة أو خطأ أو يعرف مرتكبه ثم رأى بريئا يؤخذ ويؤنب بذلك الخطأ أو تلك الجريمة ثم سكت وصمت حينئذ يكون صمته وسكوته جريمة تنفي عنه فضيلة الصدق وتصمه وتصفه برذيلة الكذب والصدق يتطلب من الإنسان عند نقل حقيقة ما أن ينقلها كاملة . فمن الكذب ذكر بعض الحقيقة وحذف بعضها ، أو ذكر الحقيقة مع الإضافة إليها .

يقول عبد الرحمن زغلول (١) : " الصدق يكون في القول أولا ، وفي جميع الدوال ثانيا ، كالإشارات المستعملة بالرأس واليد ، للدلالة على معان ، كذلك يكون في الأحوال ، فإذا خاض جماعة بالباطل في حق غائب ، فسكت سكوت

---

(١) الأخلاق : ص ٥٦ ، نشرة محمد عبد الجواد ، مطبعة المعارف بمصر .

الموافق فذلك منك خروج عن الصدق والحاصل أنك إذا قصدت إفهام غير الواقع قد للت عليه بأى شيء فأنت كاذب".

والصدق فضيلة أساسية ضرورية للاجتماع الإنسانى ولولاها لما قامت شريعة ولا استنار سبيل الهداية ، ولا قام صرح الحضارة ،ولا خُلِّدت العلوم والمعارف ولفسد الاجتماع الإنسانى من أساسه .

والصدق أساس لفضائل عدة ، لأن الصادق لابد أن يكون شجاعاً ، وأميناً ، وحافظاً للعهود ، وعادلاً فى أحكامه إلى غير ذلك من الفضائل الكثيرة التى تحتويها فضيلة الصدق وتشتمل عليها .

والصدق أيسر من الكذب وأقل متاعب على غير ما يعتقد الكثيرون الذين يتخذون من الكذب سلعة يظنون أنها رابحة ، والحقيقة

أنها الخسران المبين . فالصدق إلى جانب أنه فضيلة من الفضائل الأمهات ، فإنه أبسط وأيسر ، فإن المرء إذا سئل عن أمر من الأمور فقرر الصدق فإن الأمر ينتهي عند هذا الحد . أما إذا كذب وأخفى الحقيقة فإنه يظل على خوف من انكشاف كذبه ولابد أن ينكشف في يوم ما . ولذلك يضطر إلى إخفاء كذبه بكذبة أخرى وهكذا حتى يتورط في هذه الرذيلة ، ويُعد من الكاذبين .

روى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : تحروا الصدق وإن رأيتم أن فيه الهلكة فإن فيه النجاة ، واجتنبوا الكذب ، وإن رأيتم أن فيه النجاة فإن فيه الهلكة " (١)

والصدق رغم أنه فضيلة إلا أنه لا يحسن

---

(١) ابن أبي الدنيا : مكارم الأخلاق ص١١١ تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا .

في كل الحالات ، فهناك حالات شاذة يكون ترك الصدق فيها إلى الكذب أولى ، وترك الصدق إلى الكذب يكون في بعض الأحيان مباحا بمعنى أن هناك حالات يكون الإنسان فيها مخيرا بين الصدق والكذب ، وليس أحدهما أفضل من الآخر . وذلك كما يكون بين الرجل وزوجته يزعم لها أنه يحبها أو أنها أفضل النساء وإن كان يعتقد خلاف ذلك .

وفي بعض الأحيان يكون الصدق جائزا ولكن الكذب أفضل وأولى ، وذلك كالكذب بين شخصين متقاطعين ابتغاء الإصلاح بينهما ، فالكذب الذي يؤدي إلى الإصلاح هنا أفضل من الصدق الذي يؤدي إلى زيادة القطيعة .

وفي بعض الظروف يكون الكذب واجبا ولا يجوز الصدق إطلاقاً وذلك مثل الجندي الذي يقع أسيراً في يد الأعداء . فإذا سئل عن أسرار جيشه أو بلده يجب عليه في هذه

الحالة أن يكذب ، فإذا صدق ارتكب جريمة ضد وطنه ودينه ، فالصدق هنا ليس فضيلة والكذب واجب محتم .

وجاء في مسند الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد أنها سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يخطب يقول : يا أيها الذين آمنوا ما يحملكم على أن تتابعوا في الكذب كما يتتابع الفراش في النار كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا ثلاث خصال ، رجل كذب على امرأته ليرضيها ، أو رجل كذب في خديعة حرب أو رجل كذب بين امرأين مسلمين ليصلح بينهما . (١)

ولقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة

---

(١) مسند الإمام أحمد : ج ٦ ص ٤٥٤ ، الخرائطي : مساوئ الأخلاق ومذمومها ج ١ ص ٨٠ عن النواس بن سمعان الكلابي قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " مالي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار ، كل الكذب مكتوب كذبا لا محالة ، إلا أن يكذب الرجل في الحرب ، فإن الحرب خدعة ، أو يكون بين رجلين شحناء ، فيصلح بينهما ، أو يكذب امرأته يرضيها " .

تتحدث عن الصدق نذكر منها مايلي :
قوله (تعالى) :
(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه
فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا
تبديلا) .(١)
وقوله (تبارك وتعالى) :
(وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني
مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) .(٢)
وقوله تعالى) :
(واجعل لي لسان صدق في الآخرين) (٣)
ويكفي في فضيلة الصدق أن الصديق مشتق
منه والله (سبحانه وتعالى) وصف الانبياء به
في معرض المدح والثناء :
فقال (سبحانه وتعالى) في شأن سيدنا إبراهيم
(عليه السلام) :

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢٣
(٢) سورة الإسراء : الآية ٨٠
(٣) سورة الشعراء : الآية ٨٤

(واذكر فى الكتاب إبراهيم انه كان صديقا نبيا) (١)

وقال (عز وجل) فى شأن سيدنا إدريس (عليه السلام) :

(واذكر فى الكتاب إدريس انه كان صديقا نبيا) (٢)

ولقد عنى الإسلام بفضيلة الصدق عناية عظيمة وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو المثل الأعلى لهذه الفضيلة . وقد اشتهر به الرسول قبل البعثة حتى لقب بالصادق الأمين ، وكانت فضيلة الصدق التى اشتهر بها هى الركيزة الأولى التى استند إليها فى دعوة قريش إلى دين الله لأول مرة حيث قال لهم :

" أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقا ، قال : فإنى

---

(١) سورة مريم : الآية ٤١

(٢) سورة مريم : الآية ٥٦

نذير لكم بين يدي عذاب شديد ". (١)

وكان (صلى الله عليه وسلم) يتحرى الصدق حتى وهو يمزح. وكان يوضح مكانة الصدق ترغيبا فيه، ومآل الكذب ترهيباً منه فيقول: "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يَصْدُق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يَهْدِي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكْتَبَ عند الله كذابا ". (٢)

.·.　　　.·.

---

(١) صحيح البخاري: ج ٦ ص ١٤٠ كتاب التفسير، ط الشعب.

(٢) صحيح الإمام مسلم: ج ٢ ص ٤٣٩ كتاب البر والصلة الآداب، باب قبح الكذب، وحسن الصدق وفضله، ط عيسى البابي الحلبي وصحيح البخاري ج ٨ ص ٣٠ كتاب الأدب، ط الشعب، سنن الترمذي: ج ٤ ص ٣٤٧، كتاب البر والصلة، ط مصطفى البابي الحلبي

ثالثا : العدل :

العدل هو : "إعطاء كل ذى حق حقه" (١)

والعدل فضيلة من أمهات الفضائل التى تتوقف عليها سعادة الفرد والمجتمع ، وهو فضيلة تشتمل على فضائل كثيرة كالمساواة ، والوفاء بالعهد والأمانة ، والصبر ، والعفة ، والشجاعة .

ولكى يتحقق العدل لابد من توافر عدة عوامل من أهمها :-

١ - المعرفة المتبصرة بالحقوق والواجبات .

فلكى يكون لدى الإنسان القدرة على إعطاء كل ذى حق حقه ، لابد أن يعرف ما هو حق لهذا ، وما هو واجب على ذاك .

٢ - عدم التحيز :

والتحيز هو : ميل الإنسان لأحد

---

(١) أحمد أمين : كتاب الأخلاق ص٢٠٧ ، السيد أبو ضيف المدنى : الأخلاق فى الأديان السماوية ص٨٢

المتساويين ، وذلك بإعطاء أحدهما فوق ما يستحق في مقابل انتقاص الآخر بعض ما يستحق ، فالقاضي مثلا يجب ألا يتحيز إلى شخص ضد آخر بغير حق ، كالتحيز للغني ضد الفقير أو للأبيض ضد الأسود ، لأن عمله إنما هو تطبيق القانون على الأفراد ، والناس أمام القانون سواء .

٣- سعة الأفق والاهتمام بجوهر الأمور لا بظواهرها . فالقاضي يجب أن يكون واسع الأفق ، فينظر في محل النزاع من وجهة نظر كل من المتخاصمين ويقدر الظروف المحيطة بكل منهما كما يجب أن يجعل مدار حكمه ومصدره حقيقة العمل والباعث عليه ، وليس مظهره الخارجي .

∴ ∴

أنواع العدل :

١ – نوع يوصف به الفرد : فيقال فلان عادل .

٢ – نوع يوصف به المجتمع : فيقال هذا المجتمع عادل .

وإنما يكون الفرد عادلاً إذا أعطى كل ذى حق حقه ، فلا يظلم وإنما يحترم حقوق الناس .

أما المجتمع فيكون عادلاً إذا وجدت فيه القوانين العادلة والنظم السوية ، بحيث يطمئن كل فرد فيه إلى حقوقه ، ويشعر أنه آمن على نفسه ودينه وماله وعرضه وحريته .

هذا ولقد عنى الإسلام بفضيلة العدل عناية عظيمة ، والناظر فى القرآن الكريم يرى بوضوح مدى عنايته بهذه الفضيلة .

يقول (تبارك وتعالى) :

(ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى

أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ...) (١)

ويقول (تعالى) :

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان
وإيتاء ذي القربى ....) (٢)

يقول الأصفهاني (٣) : " وقد أشار (تعالى) بالعدل إلى الأحكام وبالإحسان إلى المكارم " .

والقرآن الكريم يأمرنا بالعدل ويحبذ مراعاته حتى مع الأعداء والمخالفين في الدين .

يقول (تعالى) :

(... ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا
اعدلوا هو أقرب للتقوى ...) (٤)

وهذه العناية العظيمة بالعدل كان

---

(١) سورة النساء : من الآية ٥٨ .
(٢) سورة النحل : من الآية ٩٠ .
(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة : ص ٣٥ ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٠م .
(٤) سورة المائدة : من الآية ٨ .

مصداقها ومثلها التطبيقي هو محمدا (عليه الصلاة والسلام) فلقد كان مثالا صادقا للعدل في كل حياته ، وكان يحض أصحابه على التمسك به والابتعاد عن الظلم ، يقول (عليه الصلاة والسلام) :

" ياأيها الناس إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة " (١) .

ومما جاء أيضا في مسند الإمام أحمد عن هشام بن زيد قال : سمعت أنس بن مالك يقول : إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال في الأنصار : إنكم لمن أحب الناس إليّ . حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن علي أبي الأسد قال حدثني بكير بن وهب الجزري قال قال لي أنس

---

(١) مسند الإمام أحمد : م٢ ـ ص١٠٦ ، دار الفكر العربي
مختصر صحيح مسلم للمنذري : ص١٠ تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ط المكتب الاسلامي ١٩٨٢م حيث ورد بلفظ " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم ".

بن مالك أحدثك حديثا ما أحدثه كل أحد
أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
قام على باب البيت ونحن فيه فقال الأئمة
من قريش إن لهم عليكم حقا ولكم عليهم
حقا مثل ذلك ما إن استرحموا فرحموا وإن
عاهدوا وفوا وإن حكموا عدلوا فمن لم
يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة
والناس أجمعين (١) .

وروى عن أنس قال : قال رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) : " أنصر أخاك
ظالما أو مظلوما . قلت يا رسول الله أنصره
مظلوما ، فكيف أنصره ظالما ؟ قال :
ترده عن الظلم " (٢)

(١) : مسند الإمام أحمد : م٣ - ص٩٠٢ .
(٢) : الطبراني : مكارم الأخلاق ص ٣٣٩ .

رابعا : العفة :

العفة هي : "ضبط النفس - أو العفة بأوسع معانيها - هي اعتدال الميل إلى اللذائذ وخضوعه لحكم العقل ، وليس ذلك مقصورا على اللذائذ الجسمية بل يشمل أيضا اللذات النفسية كالانفعالات والعواطف ، فلا يسمى الشخص "ضابطا لنفسه" إلا إذا اعتدل في لذته الجسمية من مأكل ونحوه ، واعتدل أيضا في انفعالاته فلم يغضب لأي داع ، ولم يندفع في السير وراء عواطفه كأن يحن حنينا شديدا إلى وطنه إذا نزح عنه أو يفرط في حزن لفقد عزيز عليه وكثير من الرذائل يرجع سببه إلى عدم القدرة على ضبط النفس : كالشراهة والطمع والاسراف والغضب والسخط ... " (1)

(1) أحمد أمين : كتاب الأخلاق ص ١٩٩ .

والعفة أصل لكثير من الفضائل الهامة كالصبر والقناعة والصدق والحلم والسخاء في الأخذ والعطاء .

ولقد عني الإسلام بفضيلة العفة عناية عظيمة والناظر في القرآن الكريم يرى بوضوح مدى عنايته بهذه الفضيلة .

يقول (سبحانه وتعالى)

(ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) (١) .

ويقول (تعالى):

(لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين) (٢)

---

(١) سورة طه : الآية ١٣١

(٢) سورة الحجر : الآية ٨٨

ويقول (سبحانه وتعالى) في شأن الفقراء عفيفي النفس :

(... يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ...) (١)

وروى في سنن أبي داود عن أبي سعيد الخدري أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى إذا نفد ما عنده ، قال : " ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى الله أحدا من عطاء أوسع من الصبر " . (٢)

والعفة * تعني الابتعاد عن المحرمات

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٧٣ .

(٢) سنن أبي داود : م٢ – ص ١٢١ كتاب الزكاة باب الاستعفاف مراجعة وضبط وتعليق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر

* (العفة) : عرفها الأصفهاني بأنها : حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة . والمتعفف المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر وأصله الاقتصار على تناول الشيء القليل .

ومنهـــا الزنـــا والسـرقة لأن اللـــه (سبحانـه وتعالـى) نهـــى عـن اقـتراف المحرمـــات .

أولا : عـدم الزنـــا :

قـــال (تعالـى) :

(ولا تقربوا الزنـى إنه كـا ن فاحشـة وساء سبيلا) (١)

وقـال (سبحانـه وتعالـى) :

(الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ...) (٢) الآية

ولقـد أقيمـت الحدود على مرتكبى جريمـة الزنـــا نـذكر منهـا مـا ورد فـى السنـة النبويـة المطهـرة .

= الجارى مجرى العفافـة ...

والاستعفاف طلب العفة قال (تعالى) (... ومن كـا ن غنيا فليستعفف ...) الاية سورة النساء من الاية ٦ . وقـال (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا ...) الايــة . سورة النور من الايـــة ٣٣ .

راجع الاصفهانى : المفردات فـى غريب القرآن ص ٣٣٩ تحقيق وضبط محمد سيد كيلانى . ط البابى الحلبى ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م وجاء معنى (العفة) فى المعجم الوجيز بأنها : ترك الشهوات من كل شيء . راجع : المعجم الوجيز ص ٤٢٥ ط أولى ١٩٨٠ م .

(١) سـورة الإسراء : الايـة ٣٢ .   (٢) سورة النور : من الاية ٢ .

ذكر مسلم في صحيحه عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني فرده فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله إني قد زنيت فرده الثانية فأرسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى قومه فقال أتعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئا فقالوا ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضا فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم قال: فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني وإنه ردها فلما كان الغد قالت: يا رسول الله لم تردني لعلك إن تردني كما رددت ماعزا فوالله إني لحبلى قال: إمّا لا * فاذهبي حتى تلدي فلما

---

* (إمّا لا) الأصل إن ما فأدغمت النون في الميم وحذف فعل الشرط فصار إما لا أي إن لا تريدي الستر على نفسك فاذهبي الآن .

ولدت أتته بالصبي في خرقة قالت هذا قد ولدته قال اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز فقالت : هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام ، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها ، فرجموها فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى بها رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها ، فسمع نبي الله (صلى الله عليه وسلم) سبه إياها فقال : مهلا يا خالد ، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت . (١)

∴ ∴

(١) صحيح الإمام مسلم : ج ٢ص١٣٢٥ ، وما بعدها ، ط عيسى البابي الحلبي .

ثانيا : عدم السرقة :

حرمت الشريعة الإسلامية الغراء الاعتداء على حقوق الغير . لذا قننت إقامة الحدود على المتعدين على حقوق الآخرين ، نذكر منها إقامة الحد على اقتراف جريمة السرقة وهو قطع يد السارق والسارقة مصداقا لقوله (تعالى) :

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم . (1)

ومما يدل على إقامة الحدود ماروى :

عن عائشة (رضى الله عنها) أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا ومن يجترىء عليه

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣٨ .

إلا أسامة حِبّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكلمه أسامة فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب فقال : أيها الناس إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ". (١)

∴ ∴

---

(١) صحيح الإمام مسلم : ج ٢، ص ٤٧ كتاب الحدود ، ط عيسى البابي الحلبي ، وفي حديث ابن رمح إنما هلك الذين من قبلكم .

ومختصر الترغيب والترهيب ص ٢١٦ وما بعدها انتقاء ابن حجر العسقلاني . حقق أصوله وعلق عليه الشيخ حبيب عبد الرحمن الأعظمي وآخرون ، نشرته إدارة إحياء المعارف ماليكاوند ناسك .

خامسا: الصبر:

هو " مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد لقبائح اللذات "(١) وفضيلة الصبر خاصة بالإنسان دون غيره من سائر المخلوقات ، والالتزام بها انتصار على النفس الأمارة بالسوء والمتمسك بالصبر فى مواجهة الرذائل عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوات كما يقول الإمام الغزالى ولما كانت هذه الفضيلة من أسمى الفضائل الإنسانية ، فقد وصف الله تعالى الصابرين بأحسن الأوصاف التى ذكرها الله فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، قال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) كما أبان أنها برهان تحمل التبعة والمسئولية ، قال تعالى (لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا . وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) .

وقد ورد فى الحديث أن الصبر نصف الإيمان ، قال ابن مسعود رضى الله عنه " الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر "

من هنا كان لزاما على الأفراد والجماعات أن تتمسك بهذه الفضيلة لاسيما عندما تصاب بالأزمات والنكبات .

هذا وهناك فرق بين الصبر والرضا بالواقع الذى ينبنى على الذلة

---

(١) مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٤١

والمسكنة فهذا لايكون صبرا .

تقسيمات الصبر :

للصبر تقسيمات عدة باعتبارات مختلفة ، إذ تارة يقسم باعتبار اختلاف الناس قوة وضعفا وأخرى باعتبار قدر ما يصبر عليه الإنسان وثالثة باعتبار اليسر والعسر ، ويقسم أخيرا باعتبار حكمه .

وسوف نتعرض لجميع هذه التقسيمات فيما يلي :

أولا : أقسام الصبر باعتبار اختلاف الإنسان قوة وضعفا :

يرى الإمام الغزالي أن باعث الدين مع باعث الهوى له ثلاثة أحوال :

أحدها : أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون وهم الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين وإياهم ينادي المنادي (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) .

الحالة الثانية : أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ، فيسلم الإنسان نفسه إلى جند الشياطين ولايجاهد ليأسه

من المجاهدة وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله فى قلوبهم التى هى سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله وإليهم الإشارة بقوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم وقيل لمن قصد إرشادهم (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم) وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأمانى وهو غاية الحمق كما قال صلى الله عليه وسلم : " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من اتبع هواها وتمنى على الله الأمانى " ، وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلست أطمع فيها .

<u>الحالة الثالثة</u> : أن يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين لا من الظافرين . وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم .

ثانيا : أقسام الصبر باعتبار قدر مايصبر عليه الإنسان :

إما أن يغلب جميع الشهوات أو لايغلب شيئا منها أو يغلب بعضها دون بعض وتنزيل قوله تعالى (خلطوا عملا صالحا وآخرسيئا) على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلا إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات أما الإنسان فقد زوده الله بقوى يستطيع بها قهر شهواته والتغلب عليها إلا أنه عطلها ، فهو الناقص حقا ، ولذلك قيل :

ولم أر في عيوب الناس عيبا .. كنقص القادرين على التمام

ثالثا : أقسام الصبر باعتبار اليسر والعسر :

ينقسم الصبر باعتبار اليسر والعسر إلى :

١- ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا .

٢- مايكون من غير تعب شديد ولا جهد جهيد ، بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر ، وإذا مادامت التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) .

رابعا : أقسام الصبر باعتبار حكمه :

ينقسم الصبر باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم ، فيكون فرضا عند الصبر عن المحظورات التي حظرها الشارع ومنع منها ، ويكون نفلا عند الصبر على المكاره . ويكون مكروها عند الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع ، ويكون حراما عند الصبر على الأذى المحظور كمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر على إظهار الغيرة ويسكت على ما يجرى على أهله .

من هنا يثبت لدينا أن الصبر وإن كان نصف الإيمان إلا أن جميعه ليس محمودا بل المحمود منه ما كان فرضا أو نفلا .

الآثار النفسية والاجتماعية للصبر :

من أبرز ما يحدثه الصبر من آثار على النفس البشرية هو الرضا التام أمام أحداث الحياة ، فلا تذهب النفس حسرات على أمر ضاع ولا ينخلع فرحا أمام أمر أتى ، قال تعالى (لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم)(١)

أما آثاره الاجتماعية فكثيرة ومن أهمها أن الفرد عندما يكون

---

(١) سورة الحديد : الآية (٢٢) .

راضيا غير غاضب لما يحدث من المواقف فإنه يكون كائنا سويا يصل أثره الإيجابى إلى المجتمع فلا تؤثر فيه الابتلاءات التى تشل حركته فى الحياة ولا تبطره النعمة فيطغى ويتكبر فهو بين مقامى الصبر والشكر وهو نوع من الصبر الإيجابى .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الصابر يغفر للمسئ ولايقابل السيئة بمثلها ، بل يكظم غيظه ويعفو عن الناس ، ومن هنا اعتبر القرآن الكريم هاتين الصفتين من أحسن الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها الإنسان ، بل إنه قد عدهما قمة فى الإحسان قال تعالى (.... والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) (١) فكظم الغيظ والعفو يعد من إحسان النفس وسخائها وهذا لايدانيه إحسان اليد بالإنفاق فى السراء والضراء إذ شتان بين إحسان مادى وآخر روحى معنوى .

إننا لو تصورنا مجتمعا لايقف أفراده جنبا إلى جنب رابطى الجأش أمام المطالب الدينية والاجتماعية التى توجب ذلك كمحاربة الأعداء ، أو الأعمال التى يتوقف عليها سير الحياة الاجتماعية فماذا يكون وضع هذا المجتمع ؟ إنه بلا شك سيكون مجتمعا ممزقا

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٣٤) .

غير جدير بالنصر فى معركة الجهاد وغير خليق بالحياة الاجتماعية الكريمة .

فالدين الصحيح والأخلاق المثالية يعملان جنبا إلى جنب على تربية الأفراد تربية تؤهلهم لتحمل عبء التكاليف الشرعية والاجتماعية فى ظل القانون الأخلاقى ، الذى يشكل عند الأفراد الملكة المستمرة التى تراقب أعمالهم ، فتمدحهم عليها إن كانت خيرا ، وتؤنبهم إن كانت شرا .

باعث الصبر وغايته :

الصبر شطر الإيمان ولا وزن له عند الله إلا إذا اقترن بباعث وغاية في النفس، أما الباعث فهو ابتغاء مرضاة الله وأما الغاية فهي حسن الجزاء وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار)(١)

أما غاية الصبر فحسبنا أن نقف طويلا عند قوله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)(٢)

مواطن الصبر :

للصبر مواطن كثيرة خلال مسيرة الحياة يمكننا إجمالها فيما يلي :

١ـ الصبر على الشدائد: وذلك بتحمل الجهاد ومشقاته والصبر على المكاره كالحرب وغيرها ،يقول تعالى (ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ٠٠)(٣) ويقول عز وجل (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس٠٠)(٤) وقال تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين)(٥) ٠

---

(١) سورة الرعد، الآية (٢٢) (٢) سورة الزمر، الآية (١٠)
(٣) سورة آل عمران، الآية (٢٠٠) (٤) سورة البقرة، الآية (١٧٧)
(٥) سورة محمد، الآية (٣١) ٠

٢- الصبر على شهوات النفس، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى (والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين)(١) وقال تعالى (الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)(٢)

٣- الصبر على زوال النعم ، يقول الحق سبحانه وتعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين)(٣) .

٤- الصبر على مصائب الحياة ، سواء أكانت المصيبة في النفس أو المال أو الصحة أو حظوظ الدنيا ، قال تعالى (... فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)(٤) .

٥- الصبر على فتنة الناس، يقول تعالى (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا)(٥)

---

(١) سورة المؤمنون: الآيتان (٦،٥) (٢) سورة آل عمران: الآية (١٣٤)
(٣) سورة البقرة: الآية (١٥٥) (٤) سورة الحج: الآيتان (٣٤، ٣٥)
(٥) سورة الفرقان: الآية (٢٠) .

٦- الصبر كخلق نفسي : لقد أثنى الله سبحانه وتعالى على الصبر كصفة في عباده وسمة مميزة لنفوسهم حتى يصبح طبيعة وخلقا يتحلون به ، قال تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات) (١) كما جعل الحق سبحانه وتعالى الصابرين محل رضوانه وموضع حبه وعلامة فوز أصحابه ، يقول - تعالى - (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) (٢) ويقول تعالى (...ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) (٣) .

نماذج من الصبر :

من أعظم مواضع الصبر التي ينبغي على المؤمنين تمثلها ماكان من أولي العزم من الرسل وأولاهم الذكر سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ولننظر كيف صبر على إيذاء قومه له وكيف حثه الله تعالى على الصبر فقال : (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) (٤) ، وفي

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٣٥) . (٢) سورة العصر

(٣) سورة النحل : جزء الآية (١٢٦)

(٤) سورة الأحقاف : جزء الآية (٣٥)

قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - مواقف كثيرة تضع يدنا على فضيلة الصبر التى تحلى بها أولو العزم من الرسل وهى مواقف يهتز لها الوجدان :

١- فقد صبر إبراهيم - عليه السلام - على ماحدث من قومه تجاه همهم بإحراقه .

٢- تلقى بكل الصبر والرضا أمر الله تعالى له بنقل زوجه وولده إلى جوار الكعبة بواد غير ذى زرع .

٣- تلقت السيدة هاجر أمر الله وفعل زوجها بتركها وحيدة هى وولدها إسماعيل - عليه السلام - بصبر نادر المثال .

٤- لقد صبر أيضا سيدنا إبراهيم - عليه السلام - حين أمره ربه بذبح ابنه فامتثل للأمر خاشعا صابرا .

٥- أطاع سيدنا إسماعيل - عليه السلام - أباه صابرا لأمر الله وسلم نفسه لأبيه لينفذ فيه أمر الله (ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) .

وجدير بنا نحن المسلمين أن نتمسك بفضيلة الصبر وأن نتحلى بها اقتداء برسل الله - عليهم السلام - ولكن لنا فى رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى والقدوة الطيبة والأسوة الحسنة (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) .

سادسا : الحلم :

هو : " ضبط النفس عند هيجان الغضب "(١) وهذا يكون عن باعث وسبب .

أسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس :

١- الرحمة بالجهال ، فقد قيل في منثور الحكم : من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال . قال أبو الدرداء - رضي الله عنه - لرجل أسمعه كلاما : يا هذا لا تُغْرِقَن في سبنا ودع للصلح موضعا فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله عز وجل فيه .

٢- القدرة على الانتصار ، وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة ، وقد روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " إذا قدرت على عدوك ، فاجعل العفو شكرا للقدرة عليه " .

٣- الترفع عن السباب ، وذلك من شرف النفس وعلو الهمة كما قالت الحكماء : شرف النفس أن تحمل المكاره ، كما تحمل المكارم . وقد قيل : إن الله - تعالى - سمى يحيى - عليه السلام - سيدا لحلمه فالحلم سيد الأخلاق .

---

(١) الماوردى : أدب الدنيا والدين ص ٢٤٥ .

٤- الاستهانة بالمسئ ، حكى عن مصعب بن الزبير أنه لما ولى العراق جلس يوما لعطاء الجند وأمر مناديه فنادى : أين عمرو بن جرموز ؟ وهو الذى قتل أباه الزبير ، فقيل له : أيها الأمير ، إنه قد تباعد من الأرض ، فقال : أو يظن الجاهل أنى أقيده بأبى عبد الله ، فليظهر آمنا ، ليأخذ عطاءه موفرا .

قال عمرو بن علي :

إذا نطق السفيه فلا تجبه ∴ فخير من إجابته السكوت
سكت عن السفيه فظن أنى ∴ عَيِيت عن الجواب وما عييت

٥- الاستحياء من الاتصاف بما يتصف به المسئ ، وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة ، وقد قال بعض الحكماء : احتمال السفيه خير من التحلى بصورته ، والإغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته .

٦- التفضل على السَّبَّاب ، وهذا يكون من الكرم وحب التألف . حكى عن الأحنف بن قيس أنه قال : ماعادانى أحد قط إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث خصال ، إن كان أعلى منى عرفت له قدره وإن كان دونى رفعت قدرى عنه ، وإن كان نظيرى تفضلت عليه .

٧- استكفاف الساب ، وقطع السِّباب ، وهذا يكون من الحزم كما حكى أن رجلا قال لضرار بن القعقاع : والله لو قلت واحدة

لسمعت عشرا ، فقال له ضرار والله لو قلت عشرا لم تسمع واحدة .

٨- الخوف من العقوبة على الجواب ، وهذا يكون من ضعف النفس وربما أوجبه الرأى واقتضاه الحزم .

٩- الرعاية ليد سالفة ،وحرمة لازمة وهذا يكون من الوفاء وحسن العهد ، وقد قيل فى منثور الحكم : أكرم الشيم أرعاها للذمم .

١٠- المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا يكون من الدهاء ،وقد قيل فى منثور الحكم : من ظهر غضبه قل كيده ، وقال بعض الأدباء : غضب الجاهل فى قوله وغضب العاقل فى فعله .

أسباب تسكين الغضب التى يستعان بها على الحلم :

١- أن يذكر الله عز وجل فيدعوه ذلك إلى الخوف منه ، ويبعثه الخوف منه على الطاعة له ، فيرجع إلى أدبه ويأخذ بندبه فعند ذلك يزول الغضب ، قال - تعالى - (واذكر ربك إذا نسيت) قال عكرمة : يعنى إذا غضبت ، وقال تعالى (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله) ومعنى قوله ينزغنك : أى يغضبنك فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم : يعنى أنه سميع بجهل من جهل عليم بما يذهب عنك الغضب .

٢- أن يتذكر مايئول إليه الغضب من الندم ، ومَذَمة الانتقام ؛ قال الشاعر :

وإذا ما اعترتك في الغضب العزة فاذكر تذلل الاعتذار

٣- أن يذكر ثواب العفو وحسن الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة في الجزاء والثواب ، وحذرا من استحقاق الذم والعقاب. روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " ينادى مناد يوم القيامة : من له أجر على الله عز وجل فليقم ، فيقوم العافون عن الناس ، ثم تلا (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ، وقد روى أيضا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " الخير ثلاث خصال ، فمن كن فيه فقد استكمل الإيمان من إذا رضى لم يدخل رضاه في باطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من حق ، وإذا قدر عفا " .

٤- أن يذكر انعطاف القلوب عليه وميل النفوس إليه فلا يرى إضاعة ذلك بتنفير الناس عنه وبعدهم منه فيكف عن متابعة الغضب فيرغب في التألف وجميل الثناء . روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " ما ازداد أحد بعفو إلا عزا ، فاعفو يعزكم الله "

ويجدر بنا في هذا المقام أن نبين أن الحلم أفضل من كظم

الغيظ وذلك لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أي تكلف الحلم ، ولايحتاج إلى كظم الغيظ إلا من اشتد غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ولكن إذا تعدد ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ وإن هاج فلا يكون فى كظمه تعب وهو الحلم الطبيعى وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتخير الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه " وأشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقة التحلم أولا وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم " وأشار بهذا إلى أن التكبر والتجبر هو الذى يثير الغضب ويمنع من الحلم واللين ، وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم - " اللهم أغننى بالعلم وزينى بالحلم وأكرمنى بالتقوى وجملنى بالعافية " وقال أبو هريرة : "إن رجلا قال يارسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطوننى وأحسن إليهم ويسيئون إلى ويجهلون على وأحلم عنهم قال : إن كان كما تقول فكأنما تسفهم المل ولايزال معك من الله ظهير مادمت على ذلك " المل يعنى به الرمل . (١)

---

(١) انظر الإمام الغزالى : إحياء علوم الدين ٣ / ١٧٢ وما بعدها .

أثر الحلم فى الفرد والجماعة :

مما لا خلاف فيه أن الحلم سيد الأخلاق ، ولا غرو فإن هذه الفضيلة ينعكس أثرها انعكاسا إيجابيا على الفرد والجماعة إذ يسود المجتمع المتمسك بهذه الفضيلة جو من الأمن والأمان والهدوء والاستقرار والود والصفاء والحب والنقاء لما فى هذه الفضيلة من سعة صدر ورحابة قلب فإذا ما تحلى الإنسان بهذه الفضيلة أمام من يثيره ويغضبه فلا شك أنه سيغزو قلبه ويتمكن من نفسه ويحظى بتقديره واحترامه .

وهكذا نرى أثر هذه الفضيلة وانعكاسها على الأفراد والمجتمعات انعكاسا يؤدى بها إلى شاطئ الأمن والأمان .

ويكفى هذه الفضيلة فخرا أنها صفة من صفات الحق سبحانه وتعالى فهو الحليم وصدق الله العظيم إذ يقول : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) .

سابعا : الإيثار :

يعرفه مسكويه بأنه : " فضيلة للنفس بها يكف الإنسان عن بعض حاجاته التي تخصه حتى يبذله لمن يستحقه " (١)

وهو أعلى درجة من السخاء لأنه عبارة عن أن يجود الإنسان بالمال مع الحاجة إليه ، أما السخاء فهو بذل المال لمحتاج أو لغير محتاج.

ولقد أثنى الله — عز وجل — على الأنصار — رضوان الله عليهم — به فقال : (... ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ...) (٢)

روى أن نزل برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ضيف ولم يجد عن أهله شيئا فدخل عليه رجل من الأنصار فأخذ الضيف وذهب به إلى أهله ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته بإطفاء السراج وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف فلما أصبح قال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لقد عجب الله من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم ونزلت (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى ، والإيثار أعلى درجات السخاء وكان ذلك من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى تحلى بكل

---

(١) تهذيب الأخلاق ص ٤٣ .

(٢) سورة الحشر من الآية (٩) .

ما هو جميل من الصفات وتخلى عن كل ما هو قبيح منها ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (وإنك لعلى خلق عظيم) .

وقال عمر - رضى الله عنه - أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال إن أخى فلان أحوج منى إليه فاذهب به إليه ، فذهب إليه فقال له كما قال عمر وهكذا فلم يزل كل واحد يبعث به إلى الآخر حتى تداولته سبعة بيوت إلى أن رجع إلى الأول .

ولقد جاء في الحديث القدسى عن رب العزة أنه قال :

" أحب ثلاثا وحبى إلى ثلاث أشد أحب المتواضعين وحبى إلى الغنى المتواضع أشد وأحب التائبين وحبى إلى الشاب التائب أشد وأحب الأسخياء وحبى إلى الفقير السخى أشد . وأبغض ثلاثا وبغضى إلى ثلاث أشد أبغض المتكبرين وبغضى إلى الفقير المتكبر أشد وأبغض العاصين وبغضى إلى الشيخ العاصى أشد وأبغض البخلاء وبغضى إلى الغنى البخيل أشد " .

أثر الإيثار في الفرد والجماعه :

من المجمع عليه أن صفة الإيثار من أمهات الفضائل التي يجب التحلي بها على نقيض صفة الأثرة التي يجب التخلي عنها ، ولهذه الصفة آثارها الإيجابية على الفرد والجماعة إذ تغرس الحب في النفوس وتعمق الود في القلوب فيصير المجتمع كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وعلى أساس هذه الفضيلة قام المجتمع الإسلامي النموذجي المثالي بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ومن ثم أثنى الله على الأنصار الذين اتسموا بهذه السمة وتحلّوا بهذه الفضيلة أقراً في ذلك قول الله تعالى : (والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

نماذج من الأخلاق العملية في الإسلام

بعد أن تحدثنا عن نماذج من الأخلاق في الإسلام وذكرنا بنوع من التفصيل بعضا من أهم الفضائل النظرية التي جاء بها الإسلام فإننا ننتقل بعد ذلك إلى بيان الأخلاق العملية في الإسلام متمثلة في أفعال وأخلاق رسولنا الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي كان خلقه القرآن والذي أخذت الأمة كلها عنه الأخلاق الفاضلة والقدوة الحسنة ، وسوف نورد بعضا مما إتصف به رسولنا (عليه الصلاة والسلام) كالشجاعة ، والعفو عند المقدرة والسخاء والجود والحياء والتواضع ٠٠٠٠ الخ

فمن شجاعته (صلى الله عليه وسلم) ذكر الإمام مسلم في صحيحه : ماروى عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) أحسن الناس وكان أجود الناس

وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قِبَلَ الصوت فتلقاهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) راجعا وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة عرى في عنقه السيف وهو يقول :
لم تراعوا لم تراعوا قال وجدناه بحرا أو إنه لبحر قال وكان فرسا يبطأ .* (١)

وقد كان رسولنا الكريم (عليه الصلاة والسلام) قدوة للمسلمين في شدة البأس والشجاعة وقيادة المعارك الضارية ضد الكفار والمشركين .

عن معروف قال سعيد بن المسيب :
" قتل على بن أبي طالب (رضى الله عنه)

---

* (يبطأ) أي يعرف بالبطاء والعجز وسوء السير فوجده (صلى الله عليه وسلم) جميل السير والمشي فقال وجدناه بحرا أي واسع الجري .
نقلا عن صحيح الإمام مسلم ج ٢ ص ٣٢٢ ط عيسى البابي الحلبي .

(١) صحيح الإمام مسلم : ج ٢ ص ٣٢١ وما بعدها .

أربعة من صناديد قريش أحد هم طلحة بن أبي طلحة ، ثم جاء بالسيف إلى فاطمة ، فقال :

أفاطم هاك السيف غير ذميم فلست برعديد ولا بلئيم
لعمري لقد جاهدت في نصر أحمد ومرضاة رب بالعباد عليم
أريد ثواب الله لا شيء غيره ورضوانه في جنة ونعيم
أممت ابن عبد الدار كي أعرفته بذي رونق يفري العظام صميم
وكنت امرءا أسمو إذا الحرب شمرت وقامت على ساق لكل مليم
فغادرته بالجر وأرفض جمعه عباديد من ذي فائظ وكليم (١)

أما فيما يتعلق بعفوه (صلى الله عليه وسلم) مع القدرة :

فلقد ذكر الحافظ الأصبهاني في كتابه " أخلاق النبي (صلى الله عليه وسلم) وآدابه " ما يدل على عفوه (صلى الله عليه وسلم)

---

(١) ابن أبي الدنيا : مكارم الأخلاق ص ١٤٨ وما بعدها .

عن جابر : أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جعل يقبض للناس يوم حنين من فضة فى ثوب بلال ، فقال له رجل : يانبى الله أعدل ، فقال النبى (صلى الله عليه وسلم) : ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل ؟ فقد خبت إذن وخسرت إن كنت لا أعدل ، فقام عمر فقال : ألا أضرب عنقه ؟ فإنه منافق ، فقال معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى .(١)

وعن عبد الله قال : قسم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قسماً فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله ، فذكرت ذلك للنبى (صلى الله عليه وسلم) ، فاحمرَّ وجهه وقال : رحمه الله

---

(١) الحافظ ابن حيان الأصبهانى : أخلاق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وآدابه ص ٤٠ ومابعدها ، دراسة وتحقيق د / السيد الجميلى ، دار الكتاب العربى ، ط ثانيه ١٩٨٦م .

على موسى ، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر . (١)

ولقد ذكر أيضا "الطبرانى" فى كتابه "مكارم الأخلاق" ما يفيد هذا المعنى عن أبى عبد الله الجدلى قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم) فقالت : لم يكن فاحشا ولا متفحشا ، ولا سخابا فى الأسواق ، ولا يجزى السيئة مثلها ، ولكن يعفو ويصفح . (٢)

أما إذا تحدثنا عن سخائه وجوده ، وحيائه (صلى الله عليه وسلم) فسوف نجد أحاديث كثيرة تبين وتثبت سخاءه وجوده ، وحياءه وتواضعه .

من ذلك ما ذكره الإمام مسلم فى صحيحه :

---

(١) نفس المرجع : ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) الطبرانى : مكارم الأخلاق ص ٣٢ كتب هوامشه أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية ، بيروت ، وأخرجه أيضا بهذا السياق الإمام أحمد فى مسند ، ج ٦ ص ٢٣٦ ، وأخرجه فى موضعين آخرين ج ٦ ص ١٧٤ ، ٢٤٦ ، وفيه "صخابا" بدل "سخابا" والسخاب لغة فى الصخاب .

روى عن موسى بن أنس عن أبيه قال ما سئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الإسلام شيئا إلا أعطاه قال فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه فقال ياقوم أسلموا ، فإن محمدا يعطى عطاء لايخشى الفاقة .(١)

ومما يدل على حيائه (صلى الله عليه وسلم) :

ما روى عن قتادة قال : سمعت عبد الله بن أبى عتبة يقول : سمعت أبا سعيد الخدرى يقول : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أشد حياء من العذراء فى خدرها * وكان إذا كره شيئا عرفناه فى وجهه . (٢)

---

(١) صحيح الإمام مسلم : ج ٢ ص ٣٢٢ كتاب الفضائل .

* (الخدر) الستر الذى يكون فى جانب البيت .

ومما روى عن ابن عمر : قال : "ما رأيت أحدا أجود ولا أنجد ولا أشجع من رسول الله (صلى الله عليه وسلم)". (١)

ومما روى عن ابن عباس قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان وإن جبريل (عليه السلام) كان يلقاه فى كل سنة من رمضان حتى ينسلخ فيعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة. (٢)

أما إذا تحدثنا عن تواضعه * (صلى الله

---

(١) ابن أبى الدنيا : مكارم الأخلاق : ص٣٤.

(٢) صحيح الإمام مسلم : ج ٢ص٣٢٢ كتاب الفضائل.

* (التواضع) فى اللغة هو التذلل والتخشع، وهو نقيض العجب والافتخار، لأن العجب ظن كاذب بالنفس فى استحقاق مرتبة لا تستحقها، والتواضع نقيض ذلك لأنه يوجب على صاحبه أن يعرف العيوب والنقصانات التى تعترى نفسه، وأن يعلم أن الفضل مقسم بين البشر، ولا يكمل الواحد منهم إلا بفضائل غيره. أما الافتخار فهو المباهاة بالأشياء الخارجة عنا، ومن باهى بما هو خارج عنه فقد باهى بما لا يملكه.

والتواضع الكاذب هو التظاهر بالتواضع تملقا للفوز بمديح الناس. والمتواضع الحقيقى هو الرجل الذى يعرف حدوده، فلا يدعى ــ

عليه وسلم) فسوف نجد أنه ينطبق مع قوله (تعالى) (فبما رحمة من الله لنت لهم ٠٠٠) (١)

ومما ورد في السنة النبوية المطهرة يؤكد تواضعه (عليه الصلاة والسلام) وأنه كان المثل الاعلى في التواضع بل وفي مكارم الاخلاق كلها ٠

ما روى عن أنس ، قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعود المريض ، ويتبع الجنازة ، ويجيب دعوة المملوك ، ويركب الحمار وكان يوم خيبر ، ويوم قريظة والنضير ، على حمار مخطوم بحبل من ليف ، تحته إكاف ** من ليف ٠ (٢)

— بما ليس فيه ولا يعجب بنفسه ، ولا يفتخر بما يملكه ولا يتكبر ، ولا يكلم الناس إلا في دماثة ولطف ٠
راجع : د/ جميل صليبا : المعجم الفلسفي ج ١ ص ٣٥٩ ٠
(١) سورة آل عمران : من الاية ١٥٩
** (الاكاف) هي البرذعة ٠ : نقلا عن الحافظ ابن حيان الأصفهاني أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه ص ٥٧ ٠
(٢) الحافظ ابن حيان الأصفهاني : أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه ص ٥٧ ٠

وما روى عن ابراهيم عن الأسود قال : سألت عائشة ما كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يصنع فى أهله ؟ قالت : كان فى مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة . (١)

وما روى عن أنس قال : ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله (صلى الله عليه وسلم ، وكان استرضع لابنه إبراهيم من أقصى المدينة ، وكان زوجها قينا *، فيأتيه الغلام وعليه أثر الغبار ، فيلتزمه ويقبله ويشمه . (٢)

ولا يفوتنا أن الإسلام بكل ما احتوى عليه من أوامر ونواه إنما يؤدى الى ثمار طيبة مرجعها إلى تكوين الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن .

(١) صحيح الإمام البخارى : ج ٨ ص ١٤ باب حسن الخلق ط المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ١٣١٢ هـ .

* (القين) هو الحداد والجمع قيون وقيان .
نقلا عن الحافظ ابن حيان الاصفهانى : أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم) وآدابه ، ص ٥٩ .

(٢) الحافظ ابن حيان الأصفهانى : أخلاق النبى (صلى الله عليه وسلم) وآدابه ص ٥٩ .

فإذا نظرنا إلى عماد الدين - الصلاة - وجدنا أن آثارها بنص القرآن الكريم تظهر في الأخلاق والسلوك .

يقول (سبحانه) :

(... إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ...) (١) ,

وهذا جماع الأخلاق ، الإبتعاد عن الفحشاء والمنكر .

واذا نظرنا إلى الصيام . فنجد أن الله (تعالى) قد بين الحكمة منه في التقوى التي هي جماع الأخلاق الحسنة والسلوك الجيد .

يقول (عز وجل) :

(ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) . (٢)

---

(١) سورة العنكبوت : من الآية ٤٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٣ .

وأما فريضة الزكاة فواضح أنها تقوم على أساس فى النفس هو قمة الخلق الحميد . هذا الأساس هو خلق البذل والعطاء ، والتكافل والإحساس بالآخرين وبدون هذا الخلق لا تتحقق فريضة الزكاة .

وقبل ذلك نجد كل ما ورد فى الإسلام من تكاليف بشقيها : الأمر والنهى .

وإذا كنا قد أشرنا إلى طرف من ذلك فى سيرة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) الذى توجه القرآن أمرا ونهيا إلى خلقه حتى صح أن السيدة عائشة أم المؤمنين (رضى الله عنها) قالت :

(كان خلقه القرآن) (1)

فإن الله (تعالى) جعله (صلى الله

(1) مسند الإمام أحمد : م ٦ ص ٩١ ، ١٦٣ ، دار صادر بيروت .
عن سعيد بن هشام بن عامر قال : أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين أخبرينى بخلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قالت : كان خلقه القرآن أما تقرأ القرآن قول الله (عزوجل) (وإنك لعلى خلق عظيم) . سورة القلم : الآية ٤ .

عليه وسلم) القدوة والأسوة ، وألزم الأمة كلها أن تتأسى وتقتدى به .

فقال (سبحانه) :

(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنه . .) (١)

وبعد أن انتهينا من الحديث عن ملامح الأخلاق في الإسلام أخذا من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . سوف نتحدث عن نماذج من الآداب الإسلامية العامة .

---

١) سورة الأحزاب : من الآية ٢١

نماذج من الآداب الإسلامية العامة :

يقتصر الحديث هنا على ذكر نماذج من الآداب الإسلامية كالحديث عن آداب الجوار ، وآداب المسافر وآداب السلام ، وآداب العالم والمتعلم .

آداب الجوار :

يجدر بنا قبل الحديث عن آداب الجوار أن نبين بإيجاز من هو الجار ؟

الجار ليس هو من يجاور الإنسان في المسكن فقط ، ولكنه في الحقيقة يطلق على من يجير أى يعين وينقذ ويمد يد العون والمساعدة لجيرانه . فهو أول المعاونين والمنقذين إذا حلت كارثة أو مصيبة . وهو أول الفرحين والمهنئين أيضا فالجار يزداد فرحة عند مشاركة جيرانه له في أفراحه . وأتراحه ، وكذلك يزداد حزنه عند عدم مشاركتهم له فيما يحل به .

وصدق رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) حيث قال :

"أتدرون ما حق الجار ان استعان بك أعنته، وان استنصرك نصرته، وان استقرضك أقرضته، وان افتقر عدت عليه، وان مرض عدته، وان مات تبعت جنازته، وان أصابه خير هنأته، وان أصابته مصيبة عزيته، ولا تستعلي عليه بالبناء فتحجب عنه الا باذنه، ولا تؤذه، واذا اشتريت فاكهة فأهد له فان لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك الا أن تغرف له منها، ثم قال أتدرون ما حق الجار ؟

والذى نفسي بيده لا يبلغ حق الجار الا من رحمه الله".

لذلك فالاحسان الى الجار فضيلة، به يتحقق تعاون المؤمن مع غيره، وهو سبب في شيوع المحبة بين المؤمنين، وقد حث الله سبحانه عليه

قال - تعالى :

" واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا " - (١)

والاحسان الى الجار ، يحقق الراحة النفسية لمن يتحلى به ، وهو من دلائل كمال الايمان بالله فقد روى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :

" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه " .

---

(١) سورة النساء : الاية ٣٦

ويؤكد الرسول - صلى الله عليه وسلم - الوصية بالاحسان الى الجار فقد روى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه قال :

" ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " .

ويحذر الرسول - صلى الله عليه وسلم - كذلك من الحاق الأذى بالجار ، فيخبر بأن من لم يأمن جاره شروره ، انتفى عنه كمال الايمان .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال :

" والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن " . قيل : من يارسول الله ؟ قال : " الذى لا يأمن جاره بوائقه " .

فهذا كله يدل على مدى أهمية الاحسان الى الجار وعظم اثم من أساء اليه .

ولقد فصل الإمام الغزالى " الحديث عن حقوق الجوار فقال :

" اعلم أن الجوار يقتضى حقا وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة . (١)

فقد قال النبى - صلى الله عليه وسلم - " الجيران ثلاثة ، جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق : فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم ، وأما الذى له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام ، وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك " . (٢)

---

(١) احياء علوم الدين : ج ٢ ص ٢١١

(٢) كشف الخفاء ج ١ ص ٣٩٣ البزار وأبو الشيخ فى الثواب وأبو نعيم محمد جابر وهو ضعيف وروى بلفظ غير الذى أورده الغزالى .

ويعلق الغزالي على هذا الحديث بقوله :

" فأنظر كيف أثبت للمشرك حقا بمجرد الجوار " (١)

وقد وضع للجار ما يأتي من الواجبات :

١ - أن يبدأ جارة بالسلام .

٢ وأن لا يطيل معه الكلام .

٣ وأن لا يكثر عنه السؤال ، ولا يتبعه النظر فيما يحمل الى داره ، وأن يعوده في المرض .

٤ - وأن يعوده في المرض .

٥ - وأن يعزيه في المصيبة ، ويقيم معه في العزاء .

٦ - وأن يهنئه في الفرح ، ويظهر الشركة في السرور معه .

٧ - وأن يصفح عن زلاته ، ولا يسمع فيه كلاما .

٨ - وأن لا يطلع من السطح على عوراته ، بل يستر ماينكشف له .

---

(١) الاحياء : ج ٢ ص ٢١٢ .

٩ - وأن لا يضايقه بوضع الجذع على جداره .

١٠ - وأن لا يصب الماء في ميزابه ولا يطرح التراب في فنائه .

١١ - وأن لا يضيق طريقه الى الدار .

١٢ - وأن ينعشه من صرعته اذا نابته نائبة

١٣ - وأن لا يغفل عن ملاحظة داره في غيبته .

١٤ - وأن يغض بصره عن حرمته ولا يديم النظر الى خادمته .

١٥ - وأن يتلطف لولده في كلمته .

١٦ - وأن يرشده الى ما يجهله من أمر دينه ودنياه .

∴ ∴

"آداب المسافر"

للسفر آداب يجب مراعاتها حتى يحقق الثمرة المرجوة منه :

ولقد فصل الإمام "الغزالي" الحديث عن السفر وبيان فوائده ، وفضله ، وآدابه ، وآفاته .... الخ وسوف يقتصر حديثنا هنا على ذكر طرقا من الآداب التي وضعها "الغزالي للمسافر وهي : (١)

١ - أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون واعداد النفقة لمن تلزمه نفقته ويرد ما عنده من الودائع ولا يأخذ لزاده الا الحلال الطيب ، وليأخذ قدرا يوسع به على رفقائه .

٢ - أن يختار رفيقا ، فلا يخرج وحده ، وليكن رفيقه من أهل الدين ، فإن المرء على دين خليله ، ولا يعرف الرجل إلا برفيقه .

---

(١) راجع : إحياء علوم الدين : ج ٢ ص ٢٥٠ ومابعدها .

٣ - أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء وليودع عند الوداع بدعاء الرسول الله - صلى الله عليه وسلم : عن مجاهد قال :

" خرجت الى الغزو أنا ورجل معي ، فشيعنا عبد الله بن عمر ، فلما أراد فراقنا قال : " انه ليس معي ما أعطيكما ، ولكني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " اذا استودع الله شيئا حفظه واني أستودع الله دينكما وأمانتكما وخواتم عملكما " .

٤ - أن يصلي قبل سفره صلاة الاستخارة .

٥ - اذا حصل على باب الدار فليقل باسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة الا بالله ، رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي . فاذا مشى قال اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت واليك توجهت ، اللهم أنت ثقتي وأنت رجائي

فاكفنى ما أهمنى وما لا أهتم به وما أنت أعلم به منى عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك ، اللهم زودنى التقوى ، واغفر لى ذنبى ووجهنى للخير أينما توجهت وليدع بهذا الدعاء فى كل منزل يرحل عنه فاذا ركب الدابة فليقل باسم الله وبالله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون " فاذا استوت الدابة تحته فليقل الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، اللهم أنت الحامل على الظهر وانت المستعان على الامور .

٦ - أن يرحل من المنزل بكرة فان الخير فى البكور .

٧ - أن ينوى فى دخول كل بلدة أن يرى شيوخها ويجتهد فى أن يسمع من كل واحد كلمة أو أدبا ينتفع به .

٨ - أن لا يزيد على ثلاثة أيام فى زيارة أخ له

وإذا زار أحد أساتذته في سفره ، فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة .

٩ - أن يرجع من سفره إذا رأى في نفسه نقصانا عما كان عليه في الحضر .

آداب الكلام :-

انه مما لا شك فيه أن الكلام هو لغة : التخاطب بين الأفراد والمترجم عما يكنه القلب من آراء وأفكار .
إن الكلام لفي الفؤاد وإنما .:. جعل اللسان على الفؤاد دليلا
الا أن لهذا الكلام آدابا من الواجب مراعاتها والالتزام بها ومن ثم يقول الإمام الماوردي " . (١)
" وأعلم أن للكلام آدابا ان أغفلها المتكلم ، أذهب رونق كلامه ، وطمس بهجة بيانه ، ولها الناس عن محاسن فضله ، بمساوىء أدبه ، فعدلوا عن مناقبه ، بذكر مثالبه " .

ومن آداب الكلام التي يجب مراعاتها وفقا لما ذكره

(١) أدب الدنيا والدين : ص ٢٧٦ حققه وعلق عليه مصطفى السقا دار ومكتبة الهلال بيروت طبعة ١٩٨٥م .

الماوردى ما يلى :-

١ - ألا يتجاوز فى مدح ، ولا يسرف فى ذم ، وان كانت النزاهة عن الذم كرما والتجاوز فى المدح ملقا يصدر عن مهانة ، والسرف فى الذم انتقام يصدر عن شر ، وكلاهما شين ، وان سلم من الكذب .

٢ - ألا تبعثه الرغبة والرهبة والاسترسال فى وعد أو وعيد ، يعجز عنهما ، ولا يقدر على الوفاء بهما ، فان من أطلق بهما لسانه ، وأرسل فيهما عنانه ، ولم يستثقل من القول ما يستثقله من العمل ، صار وعده نكثا ، ووعيده عجزا .

٣ - أنه ان قال قولا حققه بفعله ، واذا تكلم بكلام صدقه بعمله ، فان ارسال القول اختيار ، والعمل به اضطرار ، ولأن يفعل مالم يقل ، أجمل من أن يقول مالم يفعل . وقال بعض الحكماء : أحسن الكلام مالا يحتاج فيه الى الكلام ، أى يكتفى

بالفعل من القول

٤ - أن يراعي مخارج كلامه ، بحسب مقاصده وأغراضه فان كان ترغيبا قرنه باللين واللطف ، وان كان ترهيبا خلطه بالخشونة والعنف .

٥ - ألا يرفع بكلامه صوتا مستكرها ، ولا ينزعج له انزعاجا مستهجنا ، وليكف عن حركة تكون طيشا وعن سكون أو سكوت يكون عيا ، فان نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة .

٦ - أن يتجافى هجر القول ، ومستقبح الكلام ، ليلجأ الى الكناية فيما يستقبح صريحه ، ويستهجن فصيحه ، ليبلغ الغرض ولسانه نزه ، وأدبه مصون .

٧ - أن يتجنب أمثال العامة الغوغاء ، ويتخصص بأمثال العلماء والادباء - فان لكل صنف من الناس أمثالا تشاكلهم .

آداب العالم والمتعلم :

العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وليس المقصود من العملية التعليمية مجرد نقل المعلومات وارهاق الاذهان بالافكار وانما الهدف الاسمى هو العمل بما يعلم الانسان ويتعلمه حتى يكون قدوة طيبة وأسوة حسنة للآخرين اذ لاجدوى من علم لا يحقق ثمرته وصدق الله العظيم :

" ياأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون "

ومع هذا فان للمعلمين والمتعلمين آداب يجب على كل منهم مراعاتها نذكر جانبا منها فيما يلي :

آداب المعلم :

١ — أن يشفق على المتعلمين ، ويجريهم مجرى بنيه ويقول الامام الغزالي (١) في توابع هذه البنوة

---

(١) احياء علوم الدين : ج ١ — ص ٥٥

" وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتواد ".

٢ - أن يقتدى بصاحب الشرع ، صلوات الله عليه وسلامه ، فلا يطلب أجرا على افادة العلم ولا يقصد به جزاء ولا شكورا .

٣ - أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب الى الله تعالى دون الرياسة والمباهة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك فى نفسه بأقصى ما يمكن .

٤ - أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التلميح والرحمة ، لا بطريق التوبيخ ، فان التصريح يهتك حجاب الهيئة ، و يورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الاصرار .

٥ - أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراء علمه فليس لمعلم اللغة أن يقبح في نفس المتعلم علم الفقه مثلا ، بل ينبغي أن يوسع عليه طريق التعليم في غيره . وان كان متكفلا بعدة علوم فينبغي أن يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة .

٦ - أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، ولا يلقي اليه ما لا يبلغه عقله اقتداء في ذلك بسيد البشر حيث قال :

" نحن معاشر الانبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم " .

٧ - أن يلقي للمتعلم القاصر الجلي اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا الجلي دقيقا يدخره عنه .

٨ - أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله . وهذا الادب الاخير غير خاص بالمعلمين ولكنهم أحوج الناس اليه ، وأولاهم به ، اذا كانوا

مرشدين ومن حسن السياسة على الافل
أن يعمل المرشد بما يقول .
وصدق الشاعر حيث قال :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

آداب المتعلم :

للمتعلم آداب يجب أن يراعيها كي يحقق الثمرة المرجوة من العلم نذكر بعضاً منها :

١ - أن يقدم طهارة النفس من رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف .

٢ - أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فانه مهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق .

٣ - أن يذعن لنصيحة المعلم اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق .

٤ - أن يحترز في مبدأ أمره عن الاصغاء الى اختلاف الناس فان ذلك يحير ذهنه ويفتر

رأيه ، بل عليه أن يتقن أولاً طريقة استاذه ، ثم يصغى بعد ذلك الى الشبه والمذاهب .

٥ - أن لا يدع فنا من الفنون المحمودة الا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته ، ثم ان ساعده العمر طلب التبحر فيه ، والا اشتغل بالأهم واستوفاه وتطرف فى البقية .

٦ - ان لا يخوض فى فن من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ويبتدئ بالأهم .

٧ - أن لا يخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله فان العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا ، وبعضها طريق الى بعض .

٨ - أن يعرف أن شرف العلم انما يرجع الى شرف الثمرة أو قوة الدليل فعلم الدين فيما يرى الامام " الغزالى " أشرف من علم الطب ، لأن ثمرة الأول السعادة الأخروية ، وثمرة الثانى السعادة الدنيوية والآخرة خير من الأولى .

وعلم الحساب أشرف من علم النجوم لقوة أدلته وعلم الطب أشرف من علم الحساب ، لأن الثمرة أولى من قوة الدليل .

∴ ∴